إهـــــداء 2006
ورثة الكيميائي/ محمد فاروق الفران
الإسكندرية

القومية الافريقية

تأليف
دابنجي ستهول

ترجمة
خديجة عبد المنعم برادة

مراجعة
الدكتور محمد محمود الصياد

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة

هذه ترجمة كاملة للكتاب .

AFRICAN NATIONALISM

By Ndabaningi Sithole

الفصل الأول

مقدمة عن حياتى

رحل والدى جيم سيتول عن جازلاند موطنه الأصلى وهو فى الثامنة عشرة من عمره سعيا وراء المغامرة والحظ فى يوماتالى ولم يمكث فى يوماتالى الا أربعة أشهر قرر بعدها الرحيل الى ساليزبورى حيث عمل مساعد طباخ (مرمطون) لمدة سنتين وهناك فى ساليزبورى تعلم قشور الحديث بالانجليزية والافريكانية دون أن يستطيع أن يكتب أو يقرأ أيهما . تماما كما لم يكن يعرف كتابة أو قراءة أى من اللغات الوطنية فى جنوب روديسيا . غير أنه فتن بحديث أقرانه ممن عملوا فى جويلو عن قصص الأثراء المختلفة . فغادر ساليزبورى ليعمل فى الجراند أوتيل فى جويلو . الا أن تعلقه بالمغامرة والحظ دفعه من جديد الى ترك وظيفته والرحيل للعمل فى بولاويو .

وذات يوم بينما كان مسرعا فى مهمة معينة استلفتت فتاة قروية فطنة المظهر نظره فتوقف « ليتجلى جمال هذه الفتاة الأخاذ » كما كان يقول دائما . الا أن ضرورة المهمة كانت تتطلب منه أن يمضى دون توقف . ووقف موزعا بين أوامر سيده ورغبات قلبه وسرعان مانسى مهمته تماما ومرت ساعة ونصف دون أن يحس وجمع كل المعلومات عن هذه الفتاة . كان اسمها سيابى نشوما من أهالى نياميد لوفولانى وسرت الفتاة اذ حازت على اعجاب شخص وسيم كوالدى .

وبعد خمس زيارات لنيامندولوفو فى عطلة نهاية الأسبوع كللت

مجهودات والدى بالنجاح وبعد ستة أشهر من خطبة والدى لسيابى تشوما تم زواجهما حسب الطقوس الوطنية . وفى يوم ٢١ يونية سنة ١٩٢٠ ولدت أنا لهما . كان الكوخ الصغير المنخفض المصنوع من الطين وجذوع الشجر وأرضية قذرة هو مستشفى ولادتى وكانت حشيتى بقايا جلود قديمة . وفراشى حصيرة من البوص وغطائى جلد ماعز ووسادتى جلد ظبى مطوى. وفى نفس يوم ولادتى جعلونى أستنشق الدخان المتصاعد من قرن ماعز يحترق حتى لا يصيبنى أى ضرر وقد استمرت عملية الاستنشاق هذه لمدة ثلاثة أسابيع اعتبرت بعدها محصنا ضد كل نوايا جيراننا الخبيثة .

وحتى سن السابعة كنت ألعب « الاستغماية » وأصنع ثيرانا من الصلصال وفى المساء كنا نلتف حول جدتنا وهى تقص علينا القصص القديمة الرائعة وقد كانت جدتنا قصاصة ماهرة ولم يكن من السهل نسياننا لقصصها المليئة بالحياة المشوقة المرعبة والتى تضفى عليها بحكايتها حركة وحيوية . وهى قد تقص القصة ثم تدخل بها بعض الغناء ثم تكملها وترقص أن استلزمت القصة ذلك وكنا نشاركها الغناء والرقص حتى أصبح التهديد بأن « تأدبوا والا فلا قصة من جدتكم » التهديد الرادع لنتأدب فعلا .

وبعد السابعة مضت حياتى بين خوار العجول والثيران وثغاء الغنم والماعز والحملان . ذلك أن رعى المواشى كان أحد وسائل الكد فى سبيل لقمة العيش وقد كرهتها كما كرهها كل الصبية . وكنت أحسد الرجال لأنهم قد قاموا بدورهم وانتهوا منه . وكنت أتمنى أن أصبح رجلا لأتخلص من هذا العمل .

وكان للرعى صعوبات عديدة كان الجوع هو أظهر الصعوبات فقد كنا نتناول افطارنا فى حوالى الساعة العاشرة صباحا ثم نسوق القطيع الى المراعى التى تبعد عادة ما بين خمسة وعشرة أميال عن المنازل ولم نكن نأكل

حتى ساعة متأخرة من المساء سوى الفاكهة الموسمية ان وجدت وكثيرا ما دعونا الله فى صمت أن يعجل غروب الشمس حتى نعود الى منازلنا ونملأ بطوننا الخاوية . فلم يكن مصرحا لنا بأن نعود بالماشية قبل الغـروب . أما المشكلة الثانية فقد كان يسببها الصبية الكبار . اذ كانوا هم الرؤساء بينما نقوم نحن معشر الصبية الصغار بكل أعمال الرعى الشاقة . كانوا يعطون الأوامر فنقوم نحن بتنفيذها . وكان الخوف من الضرب المبرح يمنعنا من أن نبوح لأهلنا بما يحدث فى الغابة وما يقع فيها عادة من صلف الصبية الكبار أو قسوتهم أو غاراتهم على الحدائق .

وما زلت أذكر ذلك اليوم الذى حـذرنا فيـه زنزو أكبر الصـبية « لا تخبروا أحدا من أهلنا اننا قد أخذنا بطيخا من حديقة منزلوا ووعدنا جميعا بألا نفعل . وبينما كنا نجلس مع بعض أفراد العائلة الكبار حول النار خاطبت زنزو مفاخرا « لقد كنت تعتقد أننا سوف نخبر الكبار أننا قد أخذنا بعض البطيخ ولكنك ترى أننا لم نفعل » ويا لحظى التعس لقـد تعلمت درسا قاسيا . ففى اليوم التالى كان كل صبى يضربنى على رجلىّ قائلا « اننا لا نقول مثل هذه الأشياء لأهلنا » وكنت أتوسل اليهم وأؤكد لهم أنى لن أعود الى فعل ذلك قط .

وذات يوم بينما كنا نرعى الماشية رأينا شيئا غريبا جدا اعتقدنا أول الأمر أنه كوخ الا أنه كان يتحرك بسرعة فائقة فاندفعنا فى فزع شديد الى الغابة القريبة . لكن حب الاستطلاع تغلب على الخوف فتوقفنا واختفينا بين الأشجار وأخذنا نرقب بقلوب واجفة ذلك الشىء المتحرك . ثم توقف فجأة فصرخنا جميعا « لقد رآنا » وجرينا الى داخل الغابة حفظا لحياتنا الغالية . وخرجنا من الناحية الأخرى للغابة وجرينا الى منازلنـا بأسرع ما تحملنا أقدامنا وقصصنا هذه الحادثة المخيفة واقهجر الذين ذهبوا الى برلامويو — ورأوا السيارات — ضحكا .

لقد كان لى كمعظم أطفال البلدة « امابتشو » وهو ملبس مكون من قطعتين من الجلد واحدة تغطى الأمام والأخرى تغطى الخلف وكانت هاتان الاماباتشو تلتقيان برباط عند الوسط . فتبدوان أشبه بمثلثين غير منتظمين منها بالملابس . بينما يبقى كل الجزع عاريا . أما فى الأيام الباردة فقد كنت أستعمل جوالا قديما كمعطف يقينى البرد وكنت أستعمله كذلك ليقينى المطر فى الأيام الممطرة بطريقة بسيطة . أن أدفع أحد الأطراف ليقابل الطرف المواجه الى الداخل ويلتقيان فى نقط معينة فيكونان غطاء للرأس . وكانت توجد (تعويذة) حول عنقى والمفروض أنها تحمينى من الأرواح الشريرة التى تغطى الغابات المظلمة فى نيامندلوفو وحول وسطى تعويذة أخرى المفروض أن تحمينى من نوايا جيراننا الخبيثة ، كانت هذه الأشياء هى كل ما أملك من ملابس .

وفى أحد الأيام الباردة اصطحبت عمى فى زيارة الى حيث توسـم الحيـوانات وكان الغرض الرئيسى من ذهابى معه هو أن أرى الرجـل الأبيض الذى قيل انه يسم المواشى ولم أكن قد رأيت وجها أبيض من قبل ، لذلك كنت تواقا الى رؤيته وقد كان طويلا ممتلئا يدعو الى الخوف وتعلقت بشدة بذراع عمى عند رؤيتى لهذا الانسان الغريب . وكانت عيناه سريعة الحركة كاللبؤة التى رأيناها مرة وكان الجميع يلتفتون اليه فقد كان سيد الموقف . وقد أخذ قطعة من الحديد المحمى وضغط بها على مؤخرة البقرة فخارت بشدة وكنت فى غاية الخوف . ولم أستطع قط أن أنسى هذا الرجل الأبيض الذى يكوى البقرات الطيبات لمجرد التسلية .

وفى أواخر سنة ١٩٣٠ ترك والدى نيامندلوفو الى شبانى وقد سرنا من نيامندلوفو الى محطة بمبيزى للسكك الحديدية أى مسافة ٥٠ ميلا تقريبا وقد حمل والدى على ظهره أخى الأصغر مجوازا بينما حملت والدتى

سينا على ظهرها ، أما أنا فقد كان سنى يسمح لى بأن أسير خمسين ميلا ولقد كنت أهتز لمجرد التفكير فى رؤية القطار فلم أكن قد رأيته من قبل . وقد بلغنا بمبيزى بعد مسيرة يومين وهناك حبست أنفاسى فى انتظار وصول القطار .

واشترى لنا والدى ملابس لأول مرة . وتخلصنا من « الامابتشو » وكافحت لأرتدى سروالى القصير الكاكى وأنا أهتز طربا . كما جاهدت لألبس قميصى الكاكى أيضـا ثم انتهى الأمر أخيرا ووقفت فى ملابسى الجديدة أبتسم من نشوة الفرح غير مصدق أن هذا هو أنا . ووضعت يدى داخل جيوبى كرجل مهم صغير . ولم نمر قط ببمبيزى دون أن تصمم زوجتى كانان على أن ننزل لنبحث عن « الامابتشو » الذى كنت أرتديه . وجاءنا من بعيد صوت القطار .. وتسمرت مكانى بلا حراك فى انتباه كامل فالآن ها هو الشىء الذى طالما انتشيت لمجرد التفكير فى رؤيته والذى أنعش آمالى وشحذ فى الاحساس بالسعادة وخفف على من الآلام التى عانيتها طول الرحـلة والذى جعلنى أحس أننى فى طريقى الى حياة أفضل وأنسانى جدتى وقصصها . وأنصت خائفا لهذا الصوت المروع وتبدل فى حب الاستطلاع الى خوف ، والنشوة الى قلق فقد أصبحت دهشا متحيرا لهذا الصوت الغريب المريع فنظرت فاذا أنا أبصر من بعيد الشىء الأسود المهول وهو يسعل وينفث سحبا كبيرة من الدخان الأسود . وبدا كما لو كان متجها صوبى مباشرة . وخرجت وأنا أجرى بعيدا عنه « يا الهى احمنى من هذا الوحش المهول . وكنت أعـدو صوب منزل جدتى حيث لا توجد مثل هذه الكائنات المرعبة واشتقت الى الهدوء والسكينة فى منزل جدتى المصنوع من الطين . ولعلى قد قطعت أكثر من ربع ميل قبل أن يلحق بى والدى ويحملنى وأنا أرفسه وأحاول الافلات منه . ولقـد

حاولت القفز من القطار لو لم يمنعني وجلست فى القطار خائفا ممسكا بيد والدتى بكل قوتى . وأصبحت محور الضحك والاشفاق والأسئلة وأصبحت مسلاة المسافرين .

ووصلنا الى شاباني فى الوقت المحدد ولقد تأثرت كثيرا لرؤية الأكواخ المصنوعة من جذوع النخيل المتراصة فى صفوف منتظمة فلم أكن قد رأيت مثل هذا الشيء من قبل . وزادت دهشتى لرؤيتى للقبائل العديدة المقيمة فى هذا الحى . فقد كانوا يتكلمون بلغات مختلفة ويستمسكون بعادات متباينة كانت هذه القبائل هى الماكارانجا والفامانيكا والماشاجانا والمانياسا والماكاو والفازيزير والماسينا والماريبار وبعض قبائل أخرى جمعهم سويا السعى وراء المال .

كانت الحياة هنا سهلة نسبيا فلم يكن ثمة رعى وكنا نقضى معظم وقتنا فى اللعب داخل الحى وحوله ومشاهدة حوانيته . والتعرف على الورش . أو نتزحلق على المخازن المصنوعة من الاسبستوس أو نعمل ثقوبا فى المخازن القديمة . أما فى أيام السبت والأحد فقد كنا نعمل فى خدمة لاعبى الجولف الأوربيين (جامعى كرات) وقد كان استمتاعى بكل هذا عظيما بدرجة جعلتنى أنسى نيامندلوفو وقصص جدتى المثيرة التى تقصها بجوار المدفأة .

وفى هذه المنطقة كانت توجد مدرسة تديرها الكنيسة الميثودية الانجليزية (التى كانت تسمى Wes Leyanchurch) وفى سنة ١٩٣٢ بدأت الذهاب الى المدرسة . وقد فعلت ذلك لأنه لم يكن هناك أى عمل آخر أقوم به . ولأننى اعتقدت انه لشيء مستحب أن أفعل ما يفعله باقى الأطفال . وكانت دروسنا تشمل مبادىء التعليم الثلاثة والانجيل والصحة وزراعة الخضر وتشكيل الصلصال وبعض الأشغال الخشبية البسيطة .

وكان لنا مدرس غاية فى الحزم لا يتوانى عن استعمال السوط اذا اعتقد

أننا نستحقه . كان يستعمله لكى نحفظ الدرس جيدا وبسرعة ولكى نسكت اذا أثرنا شغبا ولكى نستمع اليه جيدا ولكى نحضر الى المدرسة فى مواعيدها ولقد كان فى هذا السوط سحر يجعلنا نقوم بما يطلبه تماما .

ولم يكن أبى مهتما بتعليمى على عكس والدتى ، فانها كانت قد ذهبت الى المدرسة ومكثت بها ثلاثة أسابيع فقط ثم ثارت على ضرب المدرس المستمر وتركت الدراسة . وهذا هو كل التعليم الذى تلقته .

أما نحن فقد كنا نحب المدرسة رغم الضرب المستمر بالسوط وأصبح الضرب والتعليم متلازمين وتقبلنا كلنا الحقيقة فى أنه بغير الضرب لا يمكن أن يكون ثمة تعليم حقيقى . حتى أصبح الضرب أحد عناصر الحياة اليومية .

وفى نهاية سنة ١٩٣٢ تركت المدرسة بناء على الحاح والدى لأعمل لدى من يدعى مستر بل وقد التحقت بالعمل كخادم فى المطبخ وكنت أرعى طفلهم الذى يبلغ من العمر خمسة أعوام . وقد علمتنى مسز بل أن أغتسل بانتظام وأن أعتنى بنظافة ملبسى وأسنانى وأن أحافظ على نظافة أظافرى وقصها وأن أحافظ على نظافة ابنها شارلى . وكانت تثور اذا رأت أى قذارة مهما كانت ضئيلة . حتى اننى كنت أعتقد أحيانا أنها مجنونة وكثيرا ما عجبت اذا كنت أنا قذرا فما شأنها هى بذلك » ؟ .

وفى سنة ١٩٣٥ تسلمت خطابا من ابن عمى لندن سيتول . الذى يصغرنى بخمس سنوات . كان الخطاب مكتوبا باللغة الانجليزية . ومع أننى كنت أكمل دراستى فى مدرسة ليلية الا انى لم أتجاوز الثانية الابتدائية فلم أستطع قراءة الخطاب وجرح هذا كبريائى جرحا عميقا . وبكيت مشمئزا من نفسى « لا أستطيع أن أقرأ ما يكتبه ولد صغير . وعذبتنى فكرة أن يفوقنى شخص أصغر منى بخمس سنوات . ومكثت

أسابيع وهى تنهش فى أحشائى » . كما تقول فى ندبيل . وقررت أن أذهب الى نفس المدرسة الداخلية التى يتعلم فيها لندن . وفى آخر يولية وبعد توسلات كثيرة من سيدتى ألا أرحل عنها . أطلق سراحى . وقلت لوالدى أريد أن أذهب الى المدرسة . وزمجر قائلا « أيها الكسول عد الى عملك ثانية ثم أخذ يذكرنى بعطف مسز هاتفيلد العظيم على وقال انه كان يفضل لى أن أموت فى خدمتها وقال وهو يضغط على أسنانه باحتقار: غدا تعود الى العمل عند مسز هاتفيلد ولا أريد أن أسمع أى شيء عن مدرستك .

كنت أعلم أن والدى قد قال كلمته وأنه لن يتراجع فيما قال فوافقته قائلا نعم يا والدى . .

فهدأ وقال « هكذا يكون الابن » .

وفى اليوم التالى أعددت ملابسى وأغطيتى . وبدل أن أذهب الى منزل مسز هاتفيلد وجدت نفسى مسافرا الى ارسالية داديا .

وسألنى مدير الارسالية المبجل جارفيلد تود الذى أصبح فيما بعد رئيسا لوزراء روديسيا « هل تقدمت بطلب للالتحاق ؟ » فأجبته « كلا يا نكوزى » .

فرد واجما « اننا فى أغسطس ونحن نستقبل الطلبة فى بداية العام » وبهت متحيرا خائب الأمل واغرورقت عيناى بالدموع وقبلتنى الارسالية شفقة بى . ووضعتنى الناظرة مسز جريس تود فى السنة الأولى . هذا وكنت قد ادخرت مبلغا لا يزيد عن جنيهين وكانت المصروفات عشرة شلنات فى السنة . ودفعت المصروفات وأصبحت تلميذا فى القسم الداخلى فهل يندمل جرح كبريائى الآن ؟

كنت متأخرا فى دراستى فى عدة علوم فقد كنت ضعيفا جدا فى علم الحساب كذلك كانت كتابتى للغة الانجليزية سيئة مع أن حديثى بها

وقراءتى لها لم تكن بهذا السـوء . كذلك كنت قد اعتـدت أن أجيب المسئولين بقولى « نعم نكوزى أو نعـم ميسس » وكان على أن أتعلم الطريقة الجديدة فأقول « نعم مفنديزى أو نعم نكوزى كازى » وقد كان خلطى للطريقتين الجديدة والقديمة مثار تسلية المدرسين والطلبة .

كانت الحياة هنا مسلية من عدة نواح . فقد كانت توجد جمعيـة الكفاح المسيحى وجمعية المناظرة ومراسيم يوم الأحد . كانت كل هـذه الأشياء مسلية للغاية بالنسبة لى . أما فى الفصل فقد كنا نتعلم مبـادىء التعليم الثلاثة (القراءة والكتابة والحساب) وعلوما أخرى . وكنا نفصل الدراسة فى الفصل عن العمل خارجه فقد سيطرت علينا الفكرة الخاطئة فى أن التعليم يقتضى الاعفاء من كل الأعمال اليدوية . فقد كان التعليم يعنى بالنسبة لنا قراءة الكتب وكتابة الانجليزية والتحدث بها واجراء العمليات الحسابية . وكنا نعتقد أن التعليم الحق هو القدرة على عمل ذلك . وأن عمل الشخص بيديه لكسب عيشه مساس بالكرامة لذلك قاومنا كل أنواع الأشغال اليدوية .

ولعل تفسير موقفنا من الأشغال اليدوية لا يخرج بنا عن سياق الحديث فقد عملنا فى بلادنا الأصلية فى كثير من أعمال الحرث والزراعة ورعاية الزرع وجنى المحصول وقطعنا الخشب وحملنا الماء ورعينا الاغنام والماعز والماشية وكنا نجيد القيام بكل هذه الأعمال . وقد جئنا الى المدرسة لا لنتعلم هذه الاعمال بل لنتعلم مالم نكن نعرف . فما نعرفه لم يكن علما . ولكن العلم هو ما لم نكن نعرف ولو كان الأمر بأيدينا لقررنا بالاجماع « عمل فى داخل الفصل فقط ولا أشغال يدوية » كنا نريد أن ندرس الكتاب حتى نجعله يبقى فى رؤوسنا كما تقول فى ندبيل (عن ظهر قلب) وأن نتكلم الانجليزية حتى نستطيع التحدث بها من أنوفنا .

وكان مدير الارسالية ذا استعداد أمثل للتعامل مع الصبية أمثالنا وقد ضرب بنفسه مثلا وجعل من نفسه قدوة لنا وعلمنا احترام العمل اليدوى . فقد كان يعمل بيديه فى الزراعة وفى فناء داره وكان يغسل سيارته بنفسه ويشكل قوالب الطوب معنا ويحرث الحقول معنا ويشاركنا فى أعمال عدة . وتحسنت تدريجيا نظرتنا الى العمل اليدوى .

وفى نفس السنة التى دخلت فيها ارسالية داديا اعترفت تائبا بالمسيح وآمنت به . غير أننى لم أتقبل المسيح كمخلص شخصى أو لاقتناعى العميق به . ولكن لأنى اعتقدت أنه لما كان كل البنين والبنات قد اختاروه فمن المستحسن أن أتبعهم . ذلك أن عدم التعميد كان وصمة اجتماعية دفعت بكثير من الأولاد والفتيات الى التـــوبة . أى أن المسيح لم يكن يعنى بالنسبة لى أكثر أو أقل من مجرد شعار اجتماعى .

وفى سنة ١٩٣٦ كانت مدخراتى قد نفدت واضطررت الى البقاء مرارآ وتكرارا فى مركز الارسالية لأعمل أثناء العطلة ولم يكن من السهل أن أبقى فى الارسالية فى كل عطلة فقد كانت وصمة كبرى اذ كشفت عن ســوء أحوال والدى المالية . وقد جعلتنى كبرياء الشباب التى ترفض أن تتقبل الحقائق المرة عن والدى الفقيرين وتفضل أن تصورهم بأرقى مما هم فى الحقيقة جعلنى أحس بعمق معنى أن يولد الفرد لوالدين فقيرين . ولقد كنت محتقرا كغيرى ممن شاركونى المصير الا أننى سرعان ما اعتدت ذلك. فقد كنت أعلم أن عودتى الى المنزل تعنى عدم حصولى على مصروفات الدراسة . بل وحرمانى كلية من الدراسة التى كنت أحبها .

وفى هذا الوقت لجأت الى الارسالية عدة فتيات كان آباؤهن يجبرونهن على الزواج . ولكنهن رفضن أن يتزوجن ممن لا يحببنهم فهربن من آبائهن الى الارسالية وقد رعاهن المبشر المسئول وتصادق معهن وسألته

مرة « هلى ستحصل على » لوبولا عن هؤلاء الفتيات . فسألنى « كلا » ، لـــاذا ؟ .

فأجبته « حسنا انى أراك مهتما بهن كما لو كنت ستحصل على شيء من ورائهن . « كلا لن أحصل على مليم واحد يا ندابانيجى » .

« لماذا اذن كل هذا الاهتمام ؟ » .

انى أفعل ذلك من أجل المسيح .

« من أجل المسيح ؟ ما معنى هذا » .

« حسنا ان المسيح يريد أن يكون كل انسان حرا وأن يتزوج من يشاء . وأنا أفعل ذلك منفذا لتعاليم المسيح . لهذا فأنا مسيحى » .

كان ذلك شيئا جديدا بالنسبة لى فقررت بدورى أن أساعد الآخرين دون أن أنتظر جزاء وكنت هنا للمرة الثانية أقلد المبشر العظيم . ولكنى كنت أزداد اقتناعا بالمسيحيين .

وفى سنة ١٩٣٧ طلب منى المبشر المسئول عن المستشفى أن أساعده . وقد ساعدته مرارا لمدة ثلاث سنوات أحسست فيها أنه يعيش لخدمة كل المحتاجين . وكان اذا علم عن أية حالة مرضية هب الى العناية بها مباشرة. وكنت اذا أجهدت فى العمل أحيانا أحس برغبة فى أن أشكو له ذلك . لكنى كنت أمسك عن ذلك خجلا لعلمى بأنه اجهاد منى .

وكانت الحروق هى أسوأ الحالات التى تصادفنا وذات يوم أحضرت امرأة طفلتها التى انسكبت عليها قدر تغلى . وقد كان منظر هذه الطفلة التى لم تتجاوز الشهرين مخيفا منفرا . وقد ماتت بين يدى بينما كنت أحاول اسعافها . ومرة أخرى جاءت فتاة جذابة تزيد قليلا عن الرابعة وكان نصفها الأسفل محترقا . ذلك أن أمها السكيرة كانت تطهو « وادسا » بينما كانت الفتاة تنام بجوار الموقد . ودفعت القدر وانسكبت البليلة على

الفتاة . وقد ماتت بعد ثماني ساعات من حضورها الينا كانت كل هـذه الأشياء تجعل المبشر فى شغل دائم وكان يكرر قوله « من أجل المسيح » وهو يقوم بعمله فى مساعدة هؤلاء الناس وبدأت شيئا فشيئا فى تفهم هذا المعنى وتطور ايمانى من مجرد تقليد الى شىء حقيقى .

وقد فهمت خلال تجاربى المسيحية المحددة أن تتبع طريقة حياة المسيح شىء ينمو داخل الفرد لا من خارجه . فنحن أولا نرى حاجتنا الى مخلص . وبعد أن نسمح للمسيح بالدخول فى نفوسنا . نبدأ بالتشبه به كما نراه فى الانجيل أو فى حياة الآخرين . وبدأت أفهم أن اختيـارى للمسيح يعنى التفتح التدريجى للغاية النبيلة كما ظهرت فى حياة المسيح نفسـها وقد ساعدتنى دروس الأحد فى أن أحصل على روح مسيحية حقة .

وفى سنة ١٩٣٩ انتهيت من السنة الدراسية السادسة فى ارسـالية « داديا » وكنت أول الفصل فأعطيت منحة ١٠ جنيهات فى « معهد واديلوف المهنى » لمدة سنتين .. ولولا حصولى على هذه الجائزة لكنت قد تركت الدراسة ما لم يهب شخص آخر لمساعدتى .

ولقد كانت واديلوف مكانا مثيرا من عدة نواح . وكان بها عـدة أقسام للعمارة والنجارة واللاهوت وتدريب المدرسين بالمدرسة الابتدائية المركزية . وكان تحت امرة السيد المبجل جورج هاس بلوك مدير المدرسة، رؤساء عدة أقسام . وكان مستر ويليام تريجيدكو أستاذنا المتخصص فى قسم تدريب المعلمين ، وكنا جميعا نعجب به فقد كان حازما متفاهما عادلا وحاسما وكان يتطلب منا أن نكون كذلك . لقد مرت الآن ثلاث عشرة سنة منذ كان مدرسا لنا الا أننى ما زلت أذكر عبر دروب الزمان والمكان صوته الواضح الرنان وهو يقول « دقها .. دقها .. دقها .. فى أذهان الأطفال . »

أما أستاذنا فى مبادىء التربية فقد كان المبجل جورج حاى بلوك وكان

يعارض فى استعمال العقوبات البدنية أيا كانت وقد علمنا ألا نلجأ اليها . الا أننا لم نكن نوافقه على ذلك . فأهلنا لم يكفوا أبدا عن استعمال العصى فى سبيل تأديبنا . كذلك كان استعمال السوط فى المدرسة الابتدائيــة المركزية السابقة أحد وسائل حفظ النظام بين التلاميذ ويظهر انى أفدت من ذلك فقد كنت أحبذ بشدة العقاب البدنى . وبما أن أغلبنا لم يكن متمسكا بنظرية « ممنوع الضرب » كنا نضرب التلاميذ سرا أثناء تدريباتنا العملية فى التدريس .

كان مستر بلوك شديد الاهتمام بالقراءة الثقــافية فكان يقول لى « ان عيبك ياندا بانيجى انك تقرأ للامتحانات فقط . ولا تقرأ للمتعة أبدا .. تعلم أن تقرأ للمتعة » . وأحيانا كنت أود أن أرد عليه قائلا : ان المتعة لن تجعلنى أجتاز الامتحان الا أنى سرعان ما اقتنعت برأيه . وقد وضح لى أسس قراءتى الثقافية فباشرافه وتشجيعه قرأت أكثر من خمسين كتابا فى السنتين اللتين أمضيتهما فى واديلوف . وأغلبها من أمهات الكتب الانجليزية. « دافيد كوبرفيلد — أوليفر تويست — البحار سيلاس . قسيس واكفيلر أيام بومبى الأخيرة وكتبا أخرى فى طبعاتها المختصرة أو المبسطة » .

وكانت مس مارجورى بيكر المشرفة على دروس الأحد شديدة الاهتمام بالأمور الروحية . وقد كنت أحد تابعى مدرسة الأحد . وقد علمتنا فى دروسها التحضيرية أن نصلى بكل قلوبنا على الموعظة قبل القائها . كما علمتنا قيمة الصلاة الشخصية البحتة .

وحينما انتهيت من دراســتى التربوية فى « واديلوف » أرسلت الى مدرسة قروية حين قمت بالتدريس فى الفصول الصغرى . الا أن رأسى كان يطن بالرغبة فى الدراسة الخاصة . كنت تواقا الى المزيد من العلم . ولو توفر المال لما توانيت عن الالتحاق بمدرسة ثانوية . وقد استطعت رغم

الظروف المعوقة أن أقوم بدراستى الخاصة الى جانب قيامى بالتدريس . وسعدت حين توج عملى المضنى لمدة سنة بحصولى على الشهادة الأهلية الصغرى وقد كان الحصول على مثل هذا المؤهل الدراسى فى هذا الوقت (الجزء الأول من ١٩٤٠) شيئا نادر الحدوث . وبعد نجاحى انضم كثير من المدرسين للحصول على هذه الشهادة ذلك أنهم لم يعودوا قانعين بأن يظلوا مجرد متفرجين .

وذات يوم بينما كنت أقوم بالتدريس فى أحد فصول السنة أفقدتنى احدى التلميذات أعصابى . فقد كانت تأتى دائما متأخرة الى المدرسة وتبتسم فى كل مرة أطلب اليها ألا تفعل . وبدا أنها مستهترة فلم يجد معها عقابى . وكنت نافرا من الالتجاء الى العقاب الجسمانى لا عن اقتناع بآراء مستر بلوك ولكن لأنى كنت حديث السن وخشيت رد فعل ذلك لدى والد الفتاة الذى كان مشهورا بأنه ساحر طبيب . لكنى فى ثورة غضبى تلك . وفى أثناء جنونى المؤقت ضربت الفتاة ضربا مبرحا .

وصاح التلاميذ فى اشفاق « ستموت أيها المدرس ستموت » ستموت. وقد تملكهم رعب قاتل .. يا لسيطرة الشعوذة على عقول الناس . ينمو الأطفال وهم مؤمنون بها بدرجة يكاد يستحيل معها اقناعهم بالتخلى عنها حين يكبرون .

وقرب انتهاء العصر جاء والد الفتاة وكان مفتول العضلات لا يقل طوله عن ستة أقدام . ونظر الى باحتقار مما جعلنى أحس بثقل وجوده وسألنى « لماذا ضربت ابنتى ؟ » .

وحاولت جهدى أن أشرح له الأمر لكنه لم ينصت . وهددنى قائلا « انك لن ترى الحصاد القادم » .

وكان يعنى بعبارته هذه أنه سيطلب من الأرواح الشريرة أن تعمل على

اقصائى من الوجود بطريقة غامضة . وفهمت ما كان يرمى اليه . فقد سمعت قصصا عديدة عن أعماله الليلية وعن سحره لعدة رجال ونساء وأطفال . وقد كان الجميع متعلمين وجهلة ، مسيحيين وكفرة ، صغارا وكبارا ، أغنياء وفقراء يؤمنون بأن لهذا الرجل سلطة غير طبيعية على حياة الانسان . ومع أنه لم يسبق لى أن هددت هكذا فقد أحسست بالضيق مع أنى لم أؤمن قط بالقتل الغامض الذى يقوم به المشعوذون ، ان رحمة الأقدار تمنح كل منا شيئا يدافع به عن نفسه فى وقت الحاجة الماسة . فقد قلت لنفسى بهدوء اذا كان قوله يعنى الموت فلا مفر وعلى أن أواجهه كرجل . وواجهت الحقائق المؤلمة عن احتمال موتى قبل الحصاد القادم .

واستدرت الى الرجل قائلا « انى أسمعك يا أبى سأموت قبل الحصاد القادم ولكنك أنت لن ترى أولادك الليلة وانى لآسف أنك لم تودعهم فانهم لن يروك أبدا بعد الآن » .

وصرخ مستهزئا فى وجهى «ماذا ؟ كيف يستطيع صبى مثلك أن يعرف مثل هذه الأشياء العميقة فى الحياة ؟ » .

وأجبته « أتعتقد أننى ولدت من شجرة ؟ » ان لى أبا وجدا وسلسلة من الآباء والأجداد . أنا سأموت قبل الحصاد القادم وأنت ستموت الليلة .

لقد كنت أمزح يا بنى .

كلا لا مزاح أنت رجل وقد قلت ما عندك وأنا أيضا رجل وقد قلت ما عندى وما يقوله الرجال لايمكن الرجوع فيه.ووجم وخيم عليه السكون وأصبحت أنا سيد الموقف بينما أصبح هو ضحية الموقف الذى خلقه .

وتوسل الى « سامحنى يا ابن سيتول » .

وبعد تظاهرى بالرفض عدة مرات سامحته وطلبت منه أن يعود الى بيته .

الا أنه قال « لا أستطيع أن أعود الى المنزل وحدى الآن يا ابن سيتول هلا رافقتنى فقد حل الظلام » .

وذهبت الى حجرة نومى وأحضرت عصاى السوداء وقدته فى طريق ضيق حلزونى وتبعنى . وكنت أضرب الظلام من حولى بعصاى وأنا أجرى وراءه أطارد جنيين وأشباحا وهمية محاولا اقناعهم « كلا يااولاد لا تمسكوا به انه صديقنا » .

وقد سار هذا الرجل المسكين ميلين وهو صامت من الرعب بينما كنت أتحدث أنا مرات ومرات الى أشباح لا ترى .

لقد أيقن دون أدنى شك أننى ساحر ومشعوذ وأن عدة أرواح شريرة تعمل فى خدمتى فى الغابة . وقد كان لذلك أثر على زيادة عـــدد الذين يحضرون الى المدرسة والكنيسة .

حين نقلت الى ارسالية داديا لأقوم بالتدريس بالفصل الخامس وجدت أن كثيرا من المدرسين مهتمون جدا بدراستهم الخاصة . وقد تبرع المشرف نوتا باعطائهم دروسا فى بعض العلوم . وتبرعت أنا الآخر باعطائهم دروسا فى علوم أخرى . وبجانب قيامى بأعمال التدريس كنت أســتعد لاتمام دراستى الثانوية .

وكنت أود أن أدخر بعض النقود لأكمل دراستى الجامعية الا أنى كنت ملزما بتعليم ثلاث أخوات لذلك كان على أن أقنع بالدراسة الخاصة .

فى سنة ١٩٤٦ تزوجت وفى ١٩٤٧ أنجبت بنتا . وبدأت متاعبنا العائلية فقد أصرت والدتى على أن تستنشق المولودة الدخان ورفضت وأخبرتها أنى مسيحى ومتعلم ولا أستطيع أن أفعل ذلك . ولكنها كانت تعد على أصابعها أسماء بعض كبار المسيحيين والمتعلمين الذين جعلوا أطفالهـــم يستنشقون الدخان وربطوا التعاويذ حول وسطهم وأصرت على أن الطفلة

ستموت اذا لم يتولها أحد المشعوذين بعطفه . وأخيرا أخبرتني أنني سواء وافقت أم لم أوافق فانها سوف تستدعي أحد المشعوذين لرعاية الطفلة .

واعترضت قائلا « انك لا تستطيعين أن تفعلي شيئا كهذا . بطفلتي يا أمـاه .

« انها ليست طفلتك فهي تنتمي لكل عائلة سيتول .. وقد تنشقت أنت الدخان حين ولدت كذلك فعلنا بكل اخوتك وأخواتك . لقد استنشق أولادي التسعة الدخان فلا يمكن أن يعيش طفل دون ذلك .

وكان الجميع يؤازرونها ولكنني صممت ألا يفعل مثل هـذا الشيء بالطفلة . أما زوجتي كانان فقد كانت ترحب بالاستماع الى صوت التجربة أكثر من اهتمامها الى والد حديث العهد بالأبوة .

وقد قلت لوالدتي وحماتي بخشونة « اننا لم نقصد أن يكون المولود طفلة وأن يكون عما هو عليه . ان شخصا ما فعل ذلك وسيستمر نفس هذا الشخص في رعاية الطفلة .. فأنا لم يكن لي أي رأي في وجودي وعلقت حماتي على ذلك بقولها « ان ايمانك رائع يا بني . فعارضتها والدتي بحنق « هذا ليس ايمانا بل عمل طفولي » .

واذ حل عام ١٩٤٨ كنت في معهد تدريب تجوين حيث عينت مدرس طرق خاصة مساعدا لمس دورا وارويك التي كانت مدرسة الطرق الخاصة ورئيسة قسم تدريب المدرسين . وقد تعلمت الكثير منها وكان لها من النشاط ما يؤهلها لعملها المضني وتعاملها مع كل فئات الطلبة والطالبات .

ولقد انتظمت في دراسة الانجيل التي أصبحت بعدها واعظا رسميا للكنيسة الميثودية البريطانية المحلية . وكنت أواظب على حضور اجتماعات « وحدة الشبان المسيحيين » Y.M.C.U حيث تفتحت عيناي على شغف الفتيات والصبية في نشر تعاليم الدين .. وكذلك استمتعت بالوعـظ في

« سجن بلمترى » ولم أكن قد فعلت ذلك من قبل بل ولم يخطر ببالى قط أن المساجين يستحقون الوعظ . ولكن كان فى تراتيلهم شىء ما يمس أعماقى . وقد تأكد لى بما لا يجعل هناك مجالا للشك أن أغلبهم ليسوا ممن يستحيل هديهم . وكثر اهتمامى بوعظهم فبالرغم من وجود زنزانات السجن الخانقة فان المساجين لم يفقدوا روح المرح .

وذات يوم سألنى السيد المبجل شابمان « ماذا عن التبشير يا أخى ؟ وكالعادة تجاهلت السؤال وفى يوم آخر قال لى قريبى المبجل أ . د . راموشبو « لماذا لا تصبح مبشرا ؟ وترددت كالعادة فى اجابته ولكنه استمر فى طريقته الصريحة قائلا « انك تخشى شظف العيش فى التبشير أليس كذلك » ؟ وقد كنت فى الواقع مهتما بالتبشير لكن شيئا ما كان يمنعنى .

وفى سنة ١٩٥٠ تركت تجوين . وانضممت الى كنيسة حرية التكوين. وأتيحت لى فرصة الوعظ ولأول مرة رأيت بعينى ظمأ الناس فى الريف البعيد عن مراكز التبشير الى الدين . فقد كانت الجموع الكثيرة تحضر اذا عرفت أننى سأخطب فيهم . وكانوا مهتمين بدراسة كلام الله كما جاء فى الانجيل وكان عدد الوعاظ قليلا . بينما كان علينا أن نبشر الكثيرين . ولم أركب دراجتى بهذه الكثرة من قبل . فقد كنت أركب دراجة التبشير فى كل عطلة نهاية الأسبوع تقريبا بعد انتهاء دروس يوم الجمعة لأذهب الى أماكن تبعد عن مدرستى ما بين عشرة وخمسة وعشرين ميلا . وقد فعلت ذلك لمدة سنتين . وقد حاول المبجل أ . ت . ج . نيامابار أن يتيح لى فرصة التمرين كمبشر الا أن ظروفا مالية منعتـه من ذلك . وسرعان ما منعتنا امكانيات الكنيسة الفقيرة من أن نستمر أنا وزوجتى فى تقديم خدماتنا هنـاك .

وانضممنا الى هيئة تدريس ت سيليندا ١٩٥٣ ولقد كان لموعظتى الأولى هناك أثر حسن مما دعا المبجل فرانك ميكان الى أن يقول لى دائما

« ندابانيجى أنت لست مدرسا ، ان مكانك هو التبشير أنا لست أمزح بل أنا جاد فيما أقول » .

ولا بد أن أذكر هنا بعض الصراع الذى دار فى نفسى بشأن خـدمة الدين فمع أنى بدأت فى الوعظ وأنا فى الثامنة عشرة من عمرى الا أننى لم أكن أفكر فى أن أجعل من الوعظ عملى الدائم . وكثيرا ما كنت أحاول اقناع نفسى القلقة أن مهنتى هى التدريس وأن الوعظ ليس الا عمـلا يشغلنى بعض الوقت . وكثيرا ما أحسست بشىء يحير ضميرى ولكنى كنت أخشى أن أقوم بأى خطوة وكنت أحس أحيانا أن هذا عمل كبار السن . غير أن ذلك كله كان مجرد اعذار أحاول بها تهدئة ضميرى المتعب . وقد استمر هذا الصراع أكثر من ثمانى سنوات . وقد أقلقنى التسـاؤل . أكون فى خدمة المسيح طول الوقت أم لا . وقد قالت لى زوجتى كانان ذات يوم ، بينما كنا نناقش هذه المسألة « اذا كان الله يريدك أن تعمل فى خدمته طوال الوقت فلا تقلق بشأن اصدار القرار الآن ، فاننا لا نستطيع أن نقرر وسيمهد هو طريقك اليه . وقد طرحت الأمر بعد ذلك أربع سنوات. ولكن التفكير فيه كان يشغلنى من وقت لآخر . وكنت قد قررت أن أتفادى الهاتف بالسكوت عنه . وقنعت بأن يكون التعليم هو مهنتى الأساسية والوعظ هو عملى الاضافى .

وذات ليلة ذكرت الموضوع فقالت زوجتى « نعم أعلم أن هذا الشىء يشغلك دائما وأستطيع أن أرى أنه هناك وحاولت أن أعلل لهروبى من هذا النداء بقولى « اننى لا أستطيع أن أبدأ التمرين لأصبح مبشرا الآن ولى ثلاثة أولاد وردت كانان لقد كنت ترعى ڤيك ابننا الأكبر بينما كنت أتلقى تدريبى والآن جاء دورى لأرعى الأولاد بينما تذهب أنت للتدريب وصرخت « ثلاث سنوات » .

« ولم لا فأنا أعرف أنك لن تسعد ما لم ترض هذا الشيء فى داخلك لقد كنت تتحدث عنه حين تزوجنا وقد مرت سبع سنوات وما زلت تتحدث عنـــه » .

وذات مساء دعونا الآنسة ليندبل نيجيزى الى منزلنا وكانت واحدة من أوائل مبشرى الزولو الذين جاءوا الى جازلاند لنشر تعاليم المسيح . وأطلعتها على مشكلتى . ولمدة طويلة أخذت تصلى وتكرر قولها . « اهده الى السبيل اذا كان ما يمنعه دافع مؤقت فاهده يا الهى العظيم الى السبيل . واذا كان يمنعه من الاستسلام لارادتك هو خوفه من شيء متوقع فيا الهى العظيم اهده الى السبيل » .

ثم صلت كانان ولم أكن قد رأيتها تصلى كذلك من قبل « يا الهى اذا كانت مشيئتك أن يتفرغ لخدمتك فساعده على أن يبت فى الأمر . وقد كان البكاء يغلبها أحيانا وكان الجو كله متوترا .

وبعد أن انتهت كانان ومسز نجيزى من صلاتهما جلس ثلاثتنا ساكنين فـــترة .

وأحسست أننى ازددت قوة . وقررت أن أقابل المبشر المحلى المبجل اليا مواديرا . وبحت له برغبتى الشديدة فى الانضمام الى التبشير المسيحى وبينت له وجهة نظرى عن خوفى من أن أتقدم رسميا الى الكنيسة اذ أننى كنت حديث الاقامة فى هذه الجهة وأننى سأفعل ذلك بعد ثلاث أو أربع ســنوات .

وقال المبجل مواد يرا « اذا كانت الرغبة موجودة فلتتقدم الآن وتفصح عنها حتى نعلم نحن بوجودها . وبعد صلاة طويلة نصحنى بأن أذهب لمقابلة المبجل جون هزيش .

واتبعت نصيحة المبجل مواديرا وذهبت لمقابلة كل من المبجلة السيدة

هزيش والمبجل السيد هزيش . وقد اهتما بقصتى . وقال المبجل هزيش فى وقار « انى مقتنع بايمانك بالمسيحية . وقد أحسسنا بذلك منذ مجيئك الى هنا . ثم أخبرنى عن الاجراءات المتبعة ثم صلى كل من المستر والمسز هزيش.

وذهبت بعد ذلك الى مس « ايڤى كريج » وهى صديقة حميمة وتعتبرنى حفيدها . وتعتبر أولادى أحفادها . وأخبرتها فتأثرت وقالت ببساطة ؛ لقد كنا نصلى لمثل ذلك » وكنت أحضر الاجتماعات لتدريس الانجيل التى أنشأتها وقد وسع ذلك من ادراكى المسيحى وعمق من تجاربى فيه . وقد كانت كمستر ومسز هزيش تحاول دائما أن تحيطنى بالكتب عن المسيحية .

ولم يبق لى سوى أن أتقدم بطلبى لاتحاد الكنائس ومجمع التبشير . وبعد أن كتبت الطلب استدعيت مس بمبيزى وكانان وقرأته لهما . وصلت مس بمبيزى بحماس وحرارة وبكت ثم صلت كانان وبكت أيضا ، كنت أحس أن هاتين المرأتين قد استسلمتا بكليتهما الى الله . لقد كنت أحس بشىء تعجز الكلمات عن التعبير عنه . وقالت مس تيمبيزى « اذا كان ما يقلقك يا بنى متعلق بالله فسوف يجيبك » وعلى الفور أرسلت الطلب الى رئيس الكنائس وتسلمت الرد التالى .

عزيزى السيد سيتول :

أود أن أشكرك على هذا الخطاب فانها لبشرى أن أتسلم مثل هذا الخطاب فان الأستاذ لا يتسلم خطابا من هذا القبيل كل يوم .

والحمد لله الذى ملأ قلبك بهذه الرغبة وانى لواثق أنه سيرعاك وايانا اذ ننظر فى طلبك بعين العطف . فليكن الله معك وليسدد خطاك فيما فيه خيرك وخير ارساليتنا ولى الأمل أن تتاح لك الفرصة . لكى تتلقى دروس اللاهوت وتخدم المسيح فى هذا المجال فى السنوات المقبلة .

امضاء .. جون مارس (رئيس الكنائس) .

وعقد مجمع الكنائس اجتماعا فى أواخر السنة ونظر فى طلبى واعتبر مستر أ . ج . ملامبو الذى وهب حياته للخدمة العامة اعتبر طلبى استجابة لصلواتهم الطويلة فقال « أخيرا استجاب الله لنا » و ووفق على طلبى بالاجماع كذلك وافق عليه بالاجماع مجمع التبشير وهو الهيئة العليا لجماعة المبشرين الأمريكيين فى جنوب روديسيا .

وقد أرسلت مس كريج احـدى مواعظى التى ألقيتها فى معهـد مت سيلندا بعنوان « حاجتنا الى الحب لا الى السلاح » الى سكرتارية الشئون الافريقية فى المجمع الأمريكى ببوسـطن وكان ذلك معاصرا لمشكلات التفرقة العنصرية فى دربان .

فقد اعتقدت أن السكرتارية قد تفيد من مثل هذه الموضوعات فى مقاومة المفاهيم الراسخة فى عقول الأمريكيين . وكان من أثر ذلك اهتمامى بأمريكا ومهدت الطريق لدراستى بها .

هذا وقد أتممت دراستى الثانوية وليسانس الآداب عن طريق الدراسة الخاصة . والمراسلة . وحين أنظر الى البيئة المثبطة التى نشأت فيها لا يسعنى الا أن أحس أننى أحد أولئك المختارين فأرفع صوتى بالشكر الى الله الذى أضفى على من نعمائه داعيا فأقول :

من الرمال المغرقة	رفعـــــــــنى
بأيـــد رحيمـــــة	رفعـــــــــنى
من ظلمات الليـــل	الى وضح النهـــار
تبـــارك اســـمه	فقـــــد رفعـــنى

الفصل الثانى
بعد الحرب العالمية الثانية

يكاد البيض فى افريقيا يفقـدون الوعى هلعـا لسرعة نمو القومية الافريقية . اذ يعتبر الوطنى الافريقى خطرا يهدد سلطة الرجل الابيض فى افريقية وكثيرا ما يتساءل ما الذى أشاع هذا الشعور الوطنى العارم بين سكان افريقيا المسالمين . الذين كانوا يبدون قانعين بسيطرة البيض .

وليس مجديا أن نفرد سببا واحدا لتيار القومية الافريقية العارم الذى اجتاح قارة افريقيا الواسعة طولا وعرضا . تلك القارة التى ينتمى اليها حوالى ١٤٠ مليون أسود و ٦٥ مليونا من العرب و ٥ ملايين من البيض . وككل الحركات تضرب جذور القومية الافريقية عميقة فى التاريخ . وبغير هذا الأساس التاريخى تبدو حركة القومية الافريقية طفرة لايمكن تفسيرها. ويمكن تتبع سلسلة أسباب هذه الحركة الى ما قبل أيام الأوربيين فى افريقيا . على أننا قبل أن نبحث العوامل التى أدت الى القومية الافريقية التى كثر الحديث عنها . يجب أن نذكر أن كل الحركات المؤثرة تعتمد على أفكار سابقة .

وقد كان للحرب العالمية الثانية كما لاحظ الكثيرون أكبر الأثر فى صحوة الشعوب الافريقية . فقد اتصل الافريقى أثناء الحرب بكل شعوب العالم تقريبا ؛ التقى بهم فى وهدة معركة حياة أو موت . فقد رأى الرجال البيض الذين يزعمون بأنهم مسالمون متحضرون يحبون النظام يتقاتلون فى مجازر بلا رحمة كما كان يفعل أجدادهم المتهمون بالوحشية — فى حروبهم

القبلية — ولم ير أى فرق بين الرجل البدائى والرجل المتحضر . وبالاختصار فقد فضح افتراءات الأوربيين أن الافريقيين هم وحدهم المتوحشون وقد عبأ ذلك نفوس الافريقيين بالثورة .

ولكن الأهم من ذلك هو أن الحرب العالمية الثانية غرست فى الافريقيين أفكارا قوية لقد لقن الحلفاء الشعوب من رعاياهم (وهم يعدون بالملايين) ابان الحرب أن من الخطأ أن تفرض ألمانيا سيطرتها على غيرها من الدول ولقنوا الشعوب المستعمرة أن الحرب والموت فى سبيل الحرية خير من الحياة والخضوع لهتلر . وقد حفظت الشعوب المستعمرة الدرس جيدا وتجاوبت معه وحاربت واحتملت المشاق وماتت تحت راية الحرية الساهرة .

وفى أثناء الحرب كان العسكريون الانجليز يغرون الافريقيين بالتطوع فى الخدمة العسكرية ومن ثم بدأوا فى تعبئة الشعور ضد النازى على أوسع نطاق . ولم يقتصر ذلك على الانجليز وحدهم بل فعله كل الحلفاء أيضا والقصة التالية نموذج حى يمثل بوضوح موقف الشعوب الأفريقية وغيرها من الشعوب المستعمرة .

يقول الضابط البريطانى « تبا لهتلر .. فليسقط ! » .

وسأله الافريقى « وماذا يعيب هتلر ؟ » .

فيجيب البريطانى « أنه يريد أن يتحكم فى العالم أجمع » .

« وما العيب فى ذلك ؟ » .

« ألا ترى .. أنه ألمانى » يقولها الضابط البريطانى فى محاولة للتأثير على شعور الافريقى القبلى » .

« وما العيب فى كونه ألمانى ؟ » .

ويحاول الضابط البريطانى أن يشرح ذلك فى كلمات يستطيع العقل الافريقى أن يستوعبها « ليس مستساغا أن تتحكم قبيلة فى قبيلة أخرى .

فلكل قبيلة أن تحكم نفسها وذلك أبسط مبادىء العدل . فالألمانى يحكم الألمان والايطالى يحكم الايطاليين والفرنسى الفرنسيين » .

ولكن الضابط البريطاني الحذر لم يقل «البريطانى يحكم البريطانيين» غير أن ما قاله حمل نفس المعنى بالنسبة للافريقيين الذين انضموا بالآلاف تحت لواء بريطانيا ، وخاضوا غمار الحرب للقضاء على شبح سيطرة النازى.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأ الافريقيون يوجهون شعورهم التحررى الذى بعثه الانجليز فيهم الى مقاومة الحلفاء الذين كانت لهم مستعمرات واسعة فى افريقية (وفعل الآسيويون نفس الأمر ضد قوى الاستعمار)وقد قامت عدةحركاتقوية لانهاء سيطرة البريطانيينوالفرنسيين فى افريقية وأصبح شعار كثير من الافريقيين الذين طالما حلموا بعودة افريقيا الى أصحابها الشرعيين « لقد قلتم انه لا يجوز للألمان أن يحكموا العالم كذلك لا يجوز أن يسيطر البريطانيون على الافريقيين » .

وقد يوضح بحثنا أن نتتبع الحركة القومية الافريقية من أجل الاستقلال التام بعد الحرب الأخيرة . ولما كانت الحركة القومية غير مقصورة على افريقيا . ولكى نحسن فهم الموقف الافريقى نترك افريقية جانبا والى حين وننتقل الى قارة آسيا الضخمة العملاقة وجزر المحيط الهادى .

لقد ولدت دول آسيوية مستقلة أثناء الحرب وبعدها . ففى الشرق الأدنى أصبحت لبنان وسوريا جمهوريتين مستقلتين وفى آسيا استطاعت الهند وباكستان الظفر باستقلالهما من بريطانيا سنة ١٩٤٧ وتحررت بورما وسيلان سنة ١٩٤٨ من الاستعمار الانجليزى كذلك . ومنحت الولايات المتحدة جزر الفيلبين استقلالها سنة ١٩٤٦ وتخلصت اندونيسيا من نير الاستعمار الهولاندى سنة ١٩٥٠ .

وجدير بالذكر أن ملايين البشر قد تحرروا من براثن القوى الاستعمارية

بعد الحرب فتخلصوا من السيطرة الأجنبية ، اما بالوسائل السلمية أو بالثورات المسلحة وأصبح الجو كله مشبعا بروح التحرر ، ومع حركة الهواء الدائمة سرعان ما وصلت الى افريقية وتنسمت شعوب القارة الافريقية من القاهرة الى الكاب نسمات الحرية الرائعة . ومن الطبيعى أن يكون نيل شعوب كثيرة فى العالم للحرية دافعا قويا لظهور القومية الافريقية .

ظهرت فى قارة افريقيا بعد الخضوع طويلا لقوى الاستعمار الأوربى أمم أفريقية جديدة تتمتع بالاستقلال التام ؛ لقد كانت ليبيريا وهى أقدم الدول الافريقية المستقلة موضع حسد كثير من الدول الافريقية الخاضعة للسيطرة الأوربية . أما البلاد الافريقية المستقلة الأخرى كاثيوبيا وليبيا ومصر وتونس والمغرب وجنوب افريقيا والسودان وغانا فقد كانت تبعث شعور النشوة والحماس فى البلاد الافريقية الأخرى الخاضعة للسيطرة الأوربية . واجتاحت افريقيا كلها سلسلة من حركات المقاومة من أجل الاستقلال . وما ذلك الا بداية التحرر الافريقى من السيطرة الأوربية .

ولعله يفيد فى ايضاح ما نقول أن نجتزىء من قول أحد القواد السياسيين الافريقيين فيقول الرئيس عبد الناصر .

« اننا لا نستطيع بأية حال أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى افريقية بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الافريقيين . وسوف تظل شعوب القارة تتطلع الينا نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة . والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجى كله ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسئولياتنا فى المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق الغابة العذراء ، ان القارة المظلمة الآن مسرح لفوار عجيب مثير ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نقف أمام الذى يجرى فى افريقية وتتصور أنه لا يمسنا ولا يصيبنا .

سوف أظل أحلم باليوم الذى أجد فيه فى القاهرة معهـدا ضخما لافريقيا .. يخلق فى عقولنا وعيا افريقيا مستنيرا ، ويشارك مع كل العاملين من كل أنحاء الأرض على تقدم الشعوب ورقيها .

وقد يختلف الزعماء الافريقيون فى التعبير عن آمالهم وأحلامهم فى تحرير أفريقيا لكن شعورهم جميعا فى الأصل واحد هو شعور المصريين بأن على الشعوب الافريقية أن تتعاون فى كفاحها لطرد المستعمر الأجنبى .

وقد قال الدكتور كوامى نكروما رئيس ساحل الذهب المسماة « غانا » الآن . قال فى سنة ٤٩ « ان حرية ساحل الذهب ستكون منهلا للوعى تنهل منه المستعمرات الافريقية حين يأتى الوقت لكى تحارب من أجل حريتها . ان ساحل الذهب المستقل سيشجع باقى المستعمرات الافريقية أن تستمر فى كفاحها من أجل الحرية والاستقلال . فانى لا أعرف لاستقلال ساحل الذهب أى معنى الا اذا ارتبط بتحرير القارة الافريقية كلها » .

وحتى فى اليوم الذى حصلت فيه غانا على استقلالها التام من بريطانيا مع بقائها فى الكومنولث البريطانى ظل كوامى نكروما رئيس الوزراء يذكر الدول الست والستين الممثلة فى احتفالات الحرية بأن غانا ستساعد كل الشعوب الافريقية فى سعيها من أجل الحرية والتقدم الاجتماعى » .

وقد قال لى أحد الآسيويين مرة « اننا مدينون باستقلالنا لأدولف هتلر » ولسنا بحاجة أن نقول ان ادولف هتلر لم يكن يهـدف أبدا الى تحرير الشعوب المقهورة بل على العكس كانت له خططه للسيطرة على العالم كله . وكان قول صديقى المتناقض يعنى أن الحرب الثانية علمت الشعوب المستعمرة كيف تقاوم السيطرة وأن تضحى فى سبيل ذلك بحياتها . ولم يكن لهذا الدرس أن يتعلم وأن يؤثر جيدا لو لم يوجد الخطر العسكرى الاستعمارى لنظام الحكم النازى . وكان هذا الدرس العظيم هو « أنه من

الخطأ أن نخضع لسيطرة أية دولة » وما زال صدى هذا الدرس يدوى فى العالم أجمع وتزداد قوته فى ربوع مختلفة داخل وخارج افريقية .

هـــذه اذن هى مفارقات التاريخ . ان الحلفاء بنجاحهم فى دفع خطر سيطرة النازى على العالم أثاروا تلك القوى الهـائلة التى تصفى الآن وبنفس الفاعلية السيطرة الأوربية فى افريقية . أو كما قال أحد المغاربة « ان صراعنا ضد فرنسا استمرار لنفس الصراع مع هتلر » ان ظهـــور القومية الافريقية واستمرارها ليس الا فعل الدول الاستعمارية ارتد اليهم. لقد أطلقوا على ألمانيا النازية رصاصة القضاء على سيطرتها ولكن نفس هذه الرصاصة تطلق عليهم الآن ! —

ومن المؤسف أن العالم الخارجى أى الدول الغربية لا تستطيع أن تنظر الى القومية الافريقية فى صورتها الحقيقية وكثيرا ما يظنون أنها حركة ضد البيض ومن ثم فهم لا يعطفون عليها . لقد وصـــموا كثيرا من القوميين الافريقيين بأنهم متمردون وعرضـــوهم لأقصى أنواع العقوبات لنشاطهم القـــومى .

ففى الهند مثلا أصبح المهاتما غاندى مبدع سلاح المقاومة السلبية من نزلاء السجون الدائمين لنشاطه القومى الذى كان السبب فى استقلال ٣٦٠ مليون نسمة . كذلك كان رئيس الوزراء الوطنى نهرو ، وفى المغرب خلع السلطان محمد الخامس لوطنيته ونفى الى مدغشقر ولكن الكفاح استمر الى أن اضطرت فرنسا أن تمنح المغرب استقلالها التام . كما اعتقل رئيس وزراء غانا كوامى نكروما لنشاطه القومى الذى اعتبرته السلطات البريطانية حينذاك مثيرا للفتنة ومعنى ذلك كله أن الغربيين كرهوا القومية الافريقية بدرجة جعلتهم يعتبرون كل وطنى افريقى عدوا للرجل الأبيض .

ومع أن هذه هى النظرة السائدة الا أنها مع ذلك تجافى الصواب . ان

القومية الافريقية موجهة ضد الاستعمار الأوربى وليست ضد الرجل الأبيض . كما أرادت كندا واستراليا ونيوزيلند وجنوب افريقية أن تتمتع بالاستقلال التام عن بريطانيا ولكن دون أن تفقد صداقتها . لقد كان ما أرادته تلك الدول الأعضاء فى الكومنولث هو رفع سيطرة حكومة المملكة المتحدة . أرادوا أن يديروا شئونهم فى بلادهم بأنفسهم ولا يريد الافريقى أن يطرد الرجل الأبيض ولكنه يبغى استقلاله التام . ومن سوء الحظ أن تفسر الحركات الافريقية ضد السيطرة الأوربية على أنها عداء للرجل الأبيض . وحين قاوم الحلفاء ألمانيا النازية لم يفعلوا ذلك لكرههم للألمان بل لكرههم للسيطرة الألمانية ولم يحارب الحلفاء الشعب الألمانى قدر محاربتهم للسيطرة الألمانية . وبالمثل فان القومية الافريقية حركة ضد السيطرة الأوربية التى تبغى التقليل من شأن الشعوب الافريقية . ان الافريقى يكره السيطرة الأوربية ولكنه لا يكره الرجل الأبيض . بل يرحب به . ان افريقية ترحب بوجود الرجل الأبيض ولكنها لا ترحب بسيطرته .

ولعل من الواجب أن نذكر كيف أصبح معظم البيض مقتنعين بالفكرة السائدة الخاطئة مع ذلك . ان القومية الافريقية بصفة عامة موجهة ضد الرجل الأبيض . ان الرجل الأبيض العادى يقرن بقاءه فى افريقية بدوام سيطرة البيض . ويبدو مقتنعا بأنه لا يستطيع أن ينعم بالحياة فى افريقية الا باستمرار سيطرته عليها . وبمعنى آخر أصبح الرجل الأبيض يرى نفسه وسيطرته على افريقية وجهين لعملة واحدة. وقد أصبح بقاء الأوربيين متداخلا ممتزجا بسيطرة البيض حتى أن الرجل الأبيض العادى لم يعد يستطيع أن يرى نفسه فى افريقية بدونها . لقد أصبحت كل حياته وأصبح من يعارض سيطرة البيض يعارض الرجل الأبيض نفسه . ومحاولة التخلص

من سيطرة البيض كمحاولة للتخلص من الرجل الأبيض نفسه ومن هنا نشأت مقاومة البيض للقومية الافريقية .

ولكن شتان بين الرجل الأبيض وسيطرة البيض وان يكن الرجل الأبيض العادى اعتاد الركوب على أكتاف الافريقيين حتى أنه لا يمكن اقناعه بأنه يستطيع الحياة والتحرك والمحافظة على كيانه ، بعد أن رماه الافريقيون عن كواهلهم . ان بأفريقية متسعا لأولئك الذين يريدون الحياة على قدم المساواة أما مجال الاستعمار فى افريقية فانه آخذ فى الانكماش سريعا .

وقد حاولت خلال حديثى فى (University of Life Forum) فى نيو برس بورت ــ بما ساشوستس فى نوفمبر سنة ١٩٥٦ أن أوضح حاجة افريقية الى صداقة الغرب وحاجة الغرب الى صداقة أفريقية ومع أن هذه حقيقة واقعة فان الواقع أيضا أن أفريقية لا تحتاج الى سيطرة الغرب ولا ترغب فيها تماما كما لا يريد الغرب سيطرة أفريقية عليه .

وقد قال سياسى روديسى أفريقيى « اننا لا نقف فى وجه الرجل الأبيض ولكن تناهض سيطرة البيض . نقتبس ثانية من أقوال كوامى نكروما رئيس وزراء غانا « أنا لا أعضد التحيز لأى جنس ولا التفرقة العنصرية ضد أى جنس أو فرد ولكنى أعارض بكل قواى الاستعمار فى كافة صوره » .

وقد قال سياسى روديسى أفريقى « أننا لا نقف فى وجه الرجل الأبيض ولكننا نقف فى وجه تصرفاته الذميمة كاستغلال الأفريقيين لصالح الأوربيين حتى أصبحوا (الأفريقيين) مجرد أشياء يتصرفون فيها حسب أهوائهم وأمزجتهم . اننا نريد أن تقبلنا شعوب الأجناس الأخرى على أننا متساوون معها فى الانسانية » .

وفى جنوب أفريقية حيث يتمسك الحزب الوطنى الحاكم بالسيطرة

على غير البيض ظهرت روح جديدة بين البيض والسود على السـواء من أجل استقلال هذا الشعب البائس فى تلك الأرض . ففى يولية سنة ١٩٥٥ اجتمع مؤتمر الشعب المكون من ٣٠٠٠ شخص وصدر ميثـاق الحرية وكان نصه كالآتى :

« نحن شعب جنوب أفريقية نعلن ليعرف شعبنا والعالم أجمع أن جنوب أفريقية ملك لمن يعيشون فيه من بيض وسـود وان حكومة ما لا تستطيع أن تتبوأ السلطة بحق الا بناء على موافقة الشعب كله . وأن شعبنا قد سلب حقه الطبيعى فى الأرض والحرية والسلام بسبب حكومة قوامها الظلم وعدم المساواة . وان بلادنا لا تستطيع أن تنعم بالرخـاء والحرية الا اذا عاش شعبنا كله فى أخوة . يتمتعون بحقوق متسـاوية وفرص متـكافئة . وأن ضمان حقوقنا الطبيعية بلا تفرقة فى اللون أو العنصر أو الجنس أو العقيدة لن يكون الا فى ظل دولة ديمقراطية مبنية على ارادة الشعب كله . لذلك قررنا نحن شعب جنوب أفريقية بيضـا وسودا على السواء أخوة ومواطنين سواسية قررنا أن نصـدر ميثاق الحرية هذا . وأننا نهب أنفسنا للجهاد سويا باذلين كل قوانا وعزمنـا حتى نبلغ النصر ونحقق هذه التغيرات الديمقراطية .

وقد قال القس جورج جـاى المؤرخ الأمريكى الزنجى المتبحر فى التاريخ الانسانى « ان الحرب العالمية الأخيرة لم تعلم الشعوب المستعمرة روح الاستقلال فقد كانت هذه الروح موجودة أصلا . ولقد أحست الشعوب منذ أمد بعيد بالظلم الفادح للاستعمار والتفرقة العنصرية . لكنها حتى ذلك الوقت لم تكن قد وجـدت طريقة الشرح والتعبير عن شـكواها وآلامها العميقة وقد أظهـرت الحـرب العالمية الثانية هـذه الآلام وركزتها ومنحتها وسيلة فعالة لتعبر عن نفسها . ان الحرب العالمية

الثانية لم تخلق روح الاستقلال ولكنها أتاحت الفرصة لهـذه الروح الموجودة أصلا أن تعبر عن نفسها . لقد حطمت ظروف ما قبل الحرب العالمية الثانية جدران السيطرة الأوربية العالمية ومن هنـا بدأ ما كان موجودا أصلا فى التدفق بقـوة ليحاول أن يجد لنفسه مجرى . لقـد كانت الحرب العالمية أداة فعالة فى انهاء سيطرة النازى على العالم وكانت لها نفس الفاعلية فى دق ناقوس الموت بالنسبة للاستعمار الأوربى .

ويقول ت والتر والبانك « ان العشرين سنة التى فصلت بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية كانت سنوات تـكوين للقوميـة الأفريقية . وكان ما يظهر على السطح قليلا ولكن الطموح والضيق كانا يتكونان ثم نشطا من عقالهما بقوة مدهشة عقب انتهاء القتال سنة ١٩٤٥ .

واذا كانت بذور القـومية الافريقية قد زرعت فى العشرين سـنة الفاصلة بين الحربين فقد نضجت بسرعة مذهلة فيما بعـد سنة ١٩٣٩ وهناك عدة عوامل لتعليل هذا النمو ذلك أن الحلفاء مثل بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ليبرروا وجهة نظرهم وعدوا بالاسراع فى منح الدول المستعمرة حكما ذاتيا .

الفصل الثالث
استعلاء العنصر الأبيض والقومية الإفريقية

والعامل الثانى الذى سنناقشه هو ما يعرف عادة « باستعلاء الجنس الأبيض » ويحسن أن نلاحظ منذ البداية أن فكرة سيادة الجنس الأبيض تمثل القاسم المشترك فى تصرفات الأوربيين حيال الأفريقيين .

وقد عرف أحـد كبار الساسة الأفريقيين الروديسيين سيادة البيض بأنها « سياسـة الرجل الأبيض للحط من قدر السود » . ووصفها أحد الأفريقيين فى كينيا بأنها « مذهب الغلبة للأقوى » ويشبهها كثير من الأفريقيين بفكرة هتلر فى « تفوق الجنس الآرى » وقد قال أفريقى نيجيرى ذات مرة أن هناك خطرين يهددان السلام العالمى : الشـيوعية وتفوق البيض . فكلاهما يقوم على نفس المبادىء ويستعمل نفس الأساليب وكلاهما يهدف الى نفس الشىء وهو السيطرة على الآخرين » . وأكمل حديثه قائلا : « ان سيادة البيض بالنسبة لنا نحن الأفريقيين مثل الشيوعية الروسية بالنسبة للدول الدائرة فى فلك روسيا » .

وعبر مدرس أفريقى من روديسيا الشمالية عن رأيه فقال : انى لا أكره السيادة البيضاء لأنها بيضاء ولكنى أكرهها لأنها تهدف الى اذلالى والسيطرة على . انها تؤلمنى . ان سيادة البيض كسياسة أوروبية معروفة تفترض خضوع الأفريقى . ان وجود سيادة للبيض أو السود أو السمر أو الصفر يحتم تولد الضغط والظلم واستغلال الشعوب الأخرى . انك

لا تسمع عن تفوق الانجليز فى انجلترا أو الفرنسيين فى فرنسا أو الامريكيين فى الولايات المتحدة . ذلك لأن الانجليزى لا يرمى الى استعمار غيره من الانجليز ولا الفرنسى غيره من الفرنسيين ولا الأمريكى غيره من الأمريكيين ولكن الرجل الأبيض وهو يرمى الى استعمار أفريقية يتحدث عن سيادة الجنس الأبيض .

وقبل أن نخوض فى شرح تفصيلات السياسات الأوربية فى أفريقيا يجدر بنا أن نذكر أن سيادة البيض تماثل نظرية اليهود فى أنهم الشعب المختار ولا تقوم هذه الفكرة الا بافتراض انحطاط الأجناس البشرية الأخرى أو تخلفها ، وقد كان لزاما أن تبنى الفكرة على ذلك لترفع من شأن نفسها وترضى كبرياء معتنقيها . وأحيانا يسوقنى الفكر للاعتقاد بأنه اذا انتهت سيادة البيض فى أفريقيا فسيصبح من السهل جدا قيام صداقة حقيقية بين أفريقيا والغرب .

فما هى العلاقة بين سيادة الجنس الأبيض وبزوغ القومية الأفريقية ؟ علينا لكى نفهم العوامل المؤثرة فى هذه القضية أن نتذكر طوال هذا الفصل أن سيادة البيض قد أنتجت نوعين من الناس فى أفريقية : المسيطرين والمسيطر عليهم . وقسمت افريقية الى معسكرين متعاديين . فالذين يسيطرون يميلون الى كره الذين يقاومون السيطرة ، والمسيطر عليهم يكرهون المسيطرين . فالصراع اذن ليس صراعا بين بيض وسود ولكنه صراع طبيعى بين مسيطر ومسيطر عليه . والمسألة لا تعنى صراع البيض والسود . ولكنها تعنى الرغبة الأكيدة فى السيطرة والرغبة المماثلة لها فى التخلص من هذه السيطرة . ونسمع من معسكر الأوربيين صوتا مصمما « نريد السيطرة على كل افريقية » ونسمع من معسكر الافريقيين

الرد المجلجل « لا نريد أن يسيطر علينا أحد » وهكذا تدوى صرخات الحرب فى طول أفريقية وعرضها .

ولكن لكى نوفى هذه القضية حقها كاملا يحسن اذن أن نعرض لمختلف السياسات الأوربية ولن نثقل على القارىء بفحص تفصيلات هذه السياسات ولكننا نكتفى بأن نذكر بصدق الروح السائدة فى هذه السياسات ، ذلك أننا لا نريد أن نفهم بنيان السياسة بقدر رغبتنا فى تفهم روح هذه السياسة ودوافعها . وأغراضها وأهدافها . فالصراع بين البيض والسود فى أفريقية أساسه الدوافع والأهداف والأغراض وهو صراع المصالح فان من مشاكل الساعة التى تواجهها اليوم أفريقية ، محاولة التوفيق بين مصالح الأوربيين ومصالح الأفريقيين . واذا نظرنا الى المشكلة من وجهة النظر الدينية يمكن أن نضعها هكذا : نقول « كيف نعلم الرجل الأبيض أن يعيش مع جاره الأفريقى وكيف نعلم الأفريقى أن يعيش مع جاره الأبيض أو باختصار كيف نجعل البيض والسود يتقبلون بعضهم بعضا » .

وانى أقترح أن نبدأ بحثنا بأفريقية البرتغالية أى موزنبيق وأنجولا .
ان أساس السياسة البرتغالية هو نظام التشبه أو التحضر .

وطبقا لهذا النظام يستطيع أى أفريقى أن يصل الى المستوى الذى تفرضه السلطات البرتغالية يستطيع أن ينتمى الى المجتمع البرتغالى ويصبح رغم اختلاف اللون برتغاليا . ويتمتع بكل الحقوق التى يتمتع بها البرتغاليون البيض . أى أن الأفريقى لا يمكن أن يصبح مواطنا كاملا فى أفريقية البرتغالية الا اذا أصبح برتغاليا أولا . فهدف السياسة البرتغالية الأساسى اذن توجيه ضربة قاضية الى القومية الأفريقية وهى بعد فى طور التكوين . بل انها فضلا عن ذلك تهدف الى منع انتشار الوعى القومى

الأفريقى .. ففى ظل نظام التشبه assimilado يلقن الأفريقى كيف يفكر فى نفسه كبرتغالى فى البرتغال لا كافريقى . إن السياسة البرتغالية تهدف الى قتل الروح الأفريقية فى الأفريقى لتحل الروح البرتغالية محلها . ويبدو أن خلق برتغاليين سود اللون هو هدف السياسة البرتغالية .

ولكن تبرز مشكلة : ان الأفريقى ليرغب فى أن يبقى كما هو . انه لا يريد أن يفقد ذاته ، انه يريد أن يصبح مواطنا فى بلده دون أن يصبح صورة ممسوخة لبرتغالى . وقد أجاد أحد الأفريقيين فى لورينكو ماركيز فى أفريقية الشرقية البرتغالية حين عبر عن هذه الحالة فقال. «ان البرتغاليين يعتقدون أن الله قد أخطأ اذ جعل الأفريقيين أفريقيين . وسياسة التحضير assimilado هى محاولة منهم لتصحيح هذا الخطأ الإلهى بيد أن الناس يحبون أن يبقوا كما هم وان يقبلهم الغير على هذا الأساس » .

ولكنى حين حاولت أن أبين له أن سياسة البرتغاليين التى تتقبل السود خير من سياسة عدم التقبل الموجودة فى جنوب أفريقية . ظهر عليه التعجب ونظر الى مستهزئا وقال :

« لا ، ليس هناك شىء اسمه تقبل الأفريقى ، ان فى أفريقية البرتغالية اليوم ما يزيد عن ١١ مليونا من الأفراد ليسوا مواطنين برتغاليين أو أفريقيين » .

فقلت : « ولكن هناك آلاف من الأفريقيين الذين استوعبهم المجتمع البرتغالى وتقبلهم » . فضحك متهكما وقال كما لو كان يتحدث الى فتى غرير لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره « لا يا بنى ان البرتغاليين بتقبلهم لبضعة آلاف من الأفريقيين كما تقول يحاولون أن يظهروا بمظهر من يتقبل الأفريقيين فى حين أنهم فى الحقيقة يرفضون دائما تقبل الأفريقى رفضا شديدا » وقلت « أنا لا أرى ذلك » .

قال « حسنا ان البرتغاليين حين يتقبلون الأفريقى المتحضر انما يتقبلون البرتغالى فيه أو بمعنى آخر انهم يتقبلون أنفسهم لا الأفريقيين».

ولم أكن فكرت فى الأمر على هذا النحو من قبل . وسرحت أفكر فى هذا المفهوم الجديد . وأكمل صديقى حديثه فقال « أترى ... أن هذا يشبه أن تقول » أيها الرجل الأبيض أنت أبيض وأنا أسود وعلى أن أصبغك باللون الأسود قبل أن أتقبلك « ولن يكون هذا تقبلا منى للرجل الأبيض بل هو تقبل للونى الأسود انه هو نفس الشىء بالنسبة لنا » .

وقد دغدغتنى فكرة صبغ الأبيض باللون الأسود . الا أن منطق الرجل أقنعنى ولكن صديقى كان متحمسا ولعله ظن أنى لم أفهم بعد ما يرمى اليه فسألنى « أتعلم لماذا تتقبل طفلك أنت » فقلت « حسنا انه طفلى وأنا والده » .

« ولكن افرض أنك تأكدت أن الطفل الذى ولدته امرأتك ليس طفلك فهل ترضى به ؟ فأجبت « سيكون ذلك صعبا » .

فقال متسائلا « مع أنه طفل زوجتك » ؟

فقلت « لكن المسألة ليست هى ما اذا كان الطفل لزوجتى بل لى أنا ، وأظن أن هذه وجهة نظر زوجتى كذلك . فاذا أصبح لى طفل من امرأة أخرى فانها لن تقبله هى أيضا » . فقال بحماس « تماما .. أى أن الطفل يجب أن يكون طفلكما معا لكى يتقبله كلاكما » فأجبته « نعم » .

« أو بمعنى آخر ان كليكما لا يتقبل الطفل بوصفه طفلا بل بوصفه قطعة منه » فقلت « أعتقد ذلك » .

« ألا ترى ما يفعله البرتغاليون ؟ انهم يحبلون الافريقى بالبرتغالى وحين يلد الافريقى البرتغالى فانهم يتقبلون البرتغالى لا الافريقى . انهم يتلقون

ما وضعوه فى الافريقى . ان سياسة البرتغاليين التحضرية أو « سياسة الاستيعاب » ليست الا رفض البرتغاليين تقبل الافريقى كما هو .

وازداد فهمى لهذه الحجة حين تذكرت ان الرجال والنساء الافريقيين فى روديسيا الجنوبية يحصلون على أكثر الأجور انخفاضا بينما يحصل الخلاسيون المنحدرون من الافريقيين والبيض على أجور أعلى ويحصل البيض على أعلى أجور فى البلاد . وكان القياس أن الحكومة فى روديسيا الجنوبية والتى تتكون غالبيتها العظمى من البيض لا ترى نفسها فى الافريقى القح لذلك فهى تقرر له أجرا منخفضا . ولكنها ترى نفسها فى الافرو أوربين ومن ثم تقرر لهم أجورا أعلى . ويبدو أن النظرية التى يقررها هذا التطبيق هى أنه كلما كان لون الفرد أقرب الى البياض كلما حسنت معاملته وكلما ابتعد عن اللون لأبيض كلما ساءت حالته .

ان لب السياسة البرتغالية هو دوام السيطرة على الأفريقى أى دوام خضوعه بحيث لا يستطيع أبدا أن يسترد ذاته .

وتقرب سياسة فرنسا فى الاستيعاب من السياسة البرتغالية كثيرا . فحين يصبح الافريقى الأصلى متحضرا مثقفا يصبح فرنسيا وتتقبله المجتمعات الفرنسية ويتمتع بكل حقوق المواطنين الفرنسيين . وهذه الوسيلة هى محاولة لامتصاص الافريقيين المتعلمين تدريجيا واشراكهم فى الحكومة المركزية للبلاد وهى سياسة واقعية الى حد ما من جانب الفرنسيين ذلك أنه من الخطأ استبعاد الافريقيين من المشاركة كليا فى حكم البلاد .

ولكن لهذه السياسة الفرنسية عيوبا فاضحة اذ أنها تعتبر الثقافة الفرنسية أو المواطن الفرنسى أعلى هدف للافريقيين . وتخلق هذه السياسة فى أذهان كثير من الافريقيين وهما خاطئا بأنه ليس هناك أفضل من أن تكون فرنسيا . وكم من افريقى يشمئز اليوم من أن يوجه كل جهده

ليصبح فرنسيا يوما ما فقد أصبحت شعوب العالم تعيش الآن فى بيوت من زجاج وأصبحت مواطن ضعفهم الداخلية وانحلالهم الخلقى تحت بصر الجميع . لقد انتهى عصر التظاهر ولم يعد الفرنسى قادرا على أن ينجح فى تظاهره للافريقى بأنه مثال التفوق . فتخلى الافريقى عن الرغبة التى أثارها فيه الفرنسيون ليصبح فرنسيا . انه يريد أن يظل افريقيا ويتمتع بالحياة كل الاستمتاع دون أن يحرم من حقوقه وامتيازاته بحجة أنه لا يشبه الفرنسيين أو يتصرف مثل تصرفهم . ويبدو أن الافريقيين فى كل جهات افريقية الذين فقدوا ذواتهم فى سباقهم ليصبحوا فرنسيين أو برتغاليين بدأوا حقا يثوبون الى أنفسهم . وأصبح من الصعب مقاومة الوعى الافريقى المنتشر الآن والذى طالما نحاه مجىء القوى الاوربية منذ بدأت تزحف على افريقية فى القرن التاسع عشر . هذه الحقيقة الجديدة من احساس الافريقيين بأنفسهم كأمة تجعل سياسة الاستيعاب الفرنسية غير منطقية .

ومن الواضح أن السياسة الفرنسية كالسياسة البرتغالية انما تهدف بالطبع الى السيطرة السياسية وأن القومية الافريقية فى افريقية الفرنسية انما هى الرغبة فى التخلص من هذه السيطرة . ان المقاومة السياسية فى شمال افريقية الفرنسى التى أدت الى تحرير تونس والمغرب واستقلالهما والثورة القائمة الآن فى الجزائر (١٩٥٧) ضد فرنسا لأمثلة طيبة على أن نظام الاستيعاب الفرنسى قد فقد ما كان له من سيطرة على الشعوب المستعمرة . ولم يعد المغاربة أو العرب يريدون أن يصبحوا فرنسيين ، تماما كما لا يريد الفرنسى أن يصبح مغربيا . وقد انتشرت نفس هذه الروح فى افريقية الغربية الفرنسية وافريقية الاستوائية الفرنسية .

والى هنا ينتهى حديثنا عن السياسة الفرنسية ، ولندر دفة الحديث الى الكونجو (البلجيكى) الذى يسكنه ١٣ مليونا من السود و ٨٠ ألفا

من البيض . ان هذا البلد الذى يملك ٥٠٪ من يورانيوم العالم و ٧٠٪ من الماس المستعمل فى الصناعة فى العالم كله يحكم من بروكسل مباشرة بحيث لا يملك البيض ولا السود من أمرهم شيئا . وليس هناك أى عمل سياسى بالمعنى المفهوم وان يكن « جون جنتر » فى كتابه « داخل افريقية » يذكر أن هناك ٣٨٠٠ سجين سياسى .

وحين يتشبه افريقى فى الكنغو البلجيكى بالغربيين ينال بعض الامتيازات الخاصة . بحيث يتمتع ببعض الحقوق الشرعية التى يتمتع بها البلجيكيون البيض . ومن ثم فان روح النظام البلجيكى فى التطوير أو التربية تبدو مماثلة لروح الادارة البرتغالية أو الفرنسية ، وهى السيطرة السياسية الكاملة . ان السياسة البلجيكية الرسمية تتمثل فى هذه العبارة « نحن نسيطر لنخدم » .

وكون الافريقيين البلجيكيين يكرهون هذا السلوك الذى يصمهم كما لو كانوا سلعا . وقد عبر مراقب افريقى من روديسيا الجنوبية عن احساس البلجيكى المطور فقال : ان بعض الافريقيين المتعلمين الذين يحافظون على كرامتهم يرفضون أن يوصفوا بأنهم مطورين Évolué لأنهم يعتبرون ذلك اعتداء على كيانهم الانسانى ، وميلهم الطبيعى هو النظر لأنفسهم كأفريقيين لا كغربيين .

ولقد تهكم كثير من الافريقيين الذين يعانون من هذا الضغط على السياسة البلجيكية التى تعادل الاستعمار بالخدمة فيقولون « تصور شخصا يقول انه سيرأس قريتك ليكون خادما لك » « تصور أن الولايات المتحدة قد نزلت على بلجيكا وهى تعلن : « سنسيطر عليكم لنخدمكم » تصور أن تذهب روسيا الى بريطانيا عارضة عليها السياسة البلجيكية السيادة للخدمة . انها سياسة لا خلقية وككل الأشياء المنافية للخلق لابد أن تنتهى نهاية محزنة .

ولنعد الآن الى سياسة اتحاد جنوب افريقيا التى تجعل كلمة Aparthied (التفرقة العنصرية) تدوى فى رءوسنا . وهى كلمة افريكانية تعنى التفرقة أو العزل . وهى كأداة سياسة تعنى التفرقة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والجنسية بسبب اللون . وهى محاولة لعزل كل من الجنس الأبيض والجنس الأسود عن الآخر . وبما أن التفرقة الجغرافية غير ممكنة التنفيذ فان التفرقة كما تمارس الآن تصبح سياسة عزل واتصال معا . فمن الناحية العملية يتصل البيض بالسود ولكنهم لغرض السيطرة على الافريقيين يعزلون بالقوانين أنفسهم عن الافريقيين . وكان شعار رئيس الحكومة ستريدم هو البازكاب Baasskap أى السيطرة البيضاء وقد قرر فى صراحة : « ان الرجل الأبيض لن يستطيع البقاء فى جنوب افريقيا الا مع التفرقة العنصرية أو بعبارة أخرى الا اذا احتفظنا بمقاليد السلطة فى أيدينا » .

ولن نكون متجنين اذا قلنا « (وستتاح لنا الفرصة لشرح ذلك فيما بعد) » ان قوام سياسة التفرقة العنصرية هو الحط من قدر الافريقى وجعله يتعبد للرجل الأبيض . يحمل له الماء ويقطع له الخشب تلك والحق يقال هى سياسة جعله فريسة للظلم الاجتماعى وهى أكثر الصور بشاعة لسيادة الرجل الأبيض .

ولنتحدث الآن عن افريقية البريطانية : وبريطانيا هى آخر دولة أوربية تناقش سياستها فى هذا الفصل . ان السياسة البريطانية تتخذ صورا متباينة فى المناطق المختلفة من أفريقيا البريطانية . ولقد عدلت الحكومة البريطانية سياستها من السيطرة الكاملة على المستعمرات الى سياسة منح هذه المستعمرات الحكم الذاتى بعد ما عانته من الثورات العنيفة فى أمريكا الشمالية . والسياسة البريطانية فى افريقية كما هى فى غيرها من الأماكن

هى سياسة تدريب الافريقيين واعدادهم للحكم الذاتى المنتظر فى اطار الكمنولث . وتميل السياسة البريطانية الآن الى استبدال سياسة الاستبعاد التى تخلق حكومة من البيض فقط بسياسة شاملة بحيث تعكس الحكومة المركزية للبلد الأجناس المختلفة التى تعيش فى هذا البلد . ويعرف هذا النوع من الحكومة بالحكومة متعددة الأجناس . وقد داوى تطور هذا النوع من الحكومة الى حد ما العيوب الفاضحة للحكم البريطانى فى افريقية .

ومع أن السياسة البريطانية ترمى من الناحية النظرية الى تهيئة المستعمرات للحكم الذاتى المنتظر . الا أنها من الناحية العملية ليست سوى سياسة . « امسك بالزمام أطول ما تستطيع » ، وهذا مفهوم طبعا اذا ما تذكرنا أن وجود البريطانيين فى افريقية ليس هو لصالح افريقية فى المقام الأول . فمن الواضح اذن أن سياستهم النظرية فى الحكم الذاتى للمستعمرات تقتضى تصفيتهم لأنفسهم وهذا ليس بالأمر الهين لأنه يتعارض على طول الخط مع مصالحهم . ان سياسة الحكم الذاتى المنتظر تعنى أن مهمة البريطانيين الأساسية فى افريقية هى تصفيتهم لأنفسهم ولا يستطيع الا الملائكة تصفية أنفسهم بأسرع ما يمكن لصالح من يحكمون ، واذا لم يكن هناك مفر من التصفية فان من الطبيعى للشخص العادى أن يحاول تصفية نفسه بأبطأ ما يكون . والخلاصة أن أحدا لا يصفى نفسه بمشيئته . ومن ثم فان معظم البلاد التى استقلت عن بريطانيا مرت بفترة من الاعتقالات والسجن على نطاق واسع . ومن النكات المشهورة أنه حين يبدأ البريطانيون فى الاعتقالات يكون الاستقلال على الأبواب .

وعلى أية حال فان السياسة البريطانية تلعب دورا ماكرا فى افريقية . ذلك أنها من الواقعية بحيث تتقبل النتيجة الحتمية فى أن البلاد لابد وأن

تعود الى أصحابها الشرعيين ومع أن الافريقيين فى عدة أجزاء من افريقية البريطانية يعانون من التفرقة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الا أنهم يتمتعون مع ذلك بالتمثيل النيابى المباشر . رغم عدم تناسبه مع أعدادهم الضخمة . ولكن السياسة البريطانية كغيرها من السياسات التى تحدثنا عنها تطبق مبدأ سيادة البيض لا من الناحية النظرية فحسب بل ومن الناحية العملية أيضا .

والآن وبعد أن تعرضنا للسياسات الأوربية فى افريقية فى نظرة عامة فان علينا أن نمسك بخيوط قصتنا وأن ننسج منها مفهوما جامعا يمكننا من أن نرى فى يسر الصلة المنطقية بين سيادة البيض وبين قيام القومية الافريقية.

ويمكن تلخيص السياسة الأوربية عامة فى افريقية فى كلمتين « سيادة البيض » وهذا ما يعنيه الافريقى بقوله « ان البيض هم البيض من الكاب الى القاهرة » . أى أن البيض مصابون بجنون التحكم فى افريقية . ان هذه السياسة الأوربية تحد هائل لافريقية . وبما أن الاستجابة للتحدى من الغرائز الطبيعية فى الانسان فان الشعوب الافريقية رغم اختلافاتها الجغرافية واللغوية والدينية الواسعة ، قد وحّد بينها هذا التحدى الذى يجابهها فى ايجابية واصرار . وتشهد قارة افريقية التطبيق الكامل لقانون « كلما زاد التحدى زاد رد الفعل » وطالما بقى التحدى فان الشعوب الافريقية ستستمر بكل ما أوتيت من قوة فى ايجاد الطرق والوسائل للتخلص من سيطرة البيض دون أن تطرد بالضرورة الرجل الأبيض من افريقية . ولو أنه من المرجح أن يترك الرجل الأبيض افريقية اذا ما أصبحت المساواة بين الأجناس حقيقة واقعة لأنه متكبر شره بدرجة لن تسمح له بأن يعيش مع الافريقيين على قدم المساواة .

ولو أن السياسة الأوربية اتبعت منذ البداية سياسة التضامن بدلا من

سياسة الاستبعاد لكان من المتصور اذن ألا تصبح القومية الافريقية كما هى الآن ولظلت غير معروفة تقريبا . غير أن هذا ليس الا مجرد حدس لاتدعى به علم ما كان يحدث اذا ما اتبعت سياسة التضـامن . لذلك فسنتحدث هنا عن بعض الاحتمالات لا الحقائق الواقعة .

ويمكن بالبحث أن نستخلص المقومات الأساسية للقومية الافريقية . ونحصرها فى « رغبة الافريقى فى المشاركة الكاملة فى حكومة البلد المركزية ورغبته فى العدالة الاقتصادية التى تعترف بقانون الأجر الواحد للعمل الواحد بصرف النظر عن لون البشرة . ورغبته فى أن يتمتع فى بلده بحقوقه. وكراهيته لأن يعامل كغريب فى وطنه الأصلى . وبغضه لأن يعامل كأداة لتحقيق غايات الرجل الأبيض . وكرهه لقوانين البلاد التى تفرض عليه أن يظل أبد الدهر آدميا حقيرا » لقد خلقت سياسة السيادة البيضاء المانعة فى الافريقيين شعورا عميقا بعدم الرضا . هذه السياسة هى التى أيقظت فى الافريقيين الاحساس باختلاف الجنس ولذلك فمن المنطقى أن نقول وان كان ذلك غريبا أن القومية الافريقية هى وليدة سيادة الرجـل الأبيض وحاصل سياسة الاستبعاد .

ويثير ذلك التساؤل « أكان يمكن لسياسة الاستبعاد الأوربية هذه والمسئولة الى حد كبير عن ظهور القومية الافريقية أن تعمل أفضل مما فعلت ؟ اننا نعتقد بحق أن سياسة الشمول كانت أفضل . ونقصد بسياسة الشمول سياسة تستوعب كل من يقع تحت سلطانها . وهذه هى ميزتها الكبرى فهى لا تتجاهل مطالب ومصالح قطاع من شعبها لصالح قطاع آخر . فسياسة الاستبعاد تعنى بطبيعتها التغاضى عن مصالح جزء من الشعب لصالح جزء آخر . وتلك بعينها هى نقطة الضعف القاتلة لسيادة الجنس الأبيض . فالحكومة التى توجه لخدمة سيادة الرجل الأبيض تفشل

فشلا ذريعا فى خدمة المصالح الأساسية للمجتمع المتعدد الأجناس . ويسخط الذين تغفل مصالحهم عن عمد ويطلبون حكومة تنظر الى شئون البلاد نظرة شاملة حقيقية .

ولكن حتى لو اقتنعنا بأن سياسة أوربية شاملة كان يمكن أن تفضل سياسة الاستبعاد الأوربية الحالية . فان مجرد وصف السياسة بأنها أوربية يعنى أنها خارجية وأجنبية وهى تعتبر عمليا سياسة استبعاد لأن افريقية متعددة الأجناس . ولكن ربما كان مقبولا لدى الجميع سياسة شاملة تطرق فى افريقية على سند المساواة الحقيقية بين كل تلك الأجناس .

وفى نهاية بحثنا نستطيع أن نقول ان سيادة البيض انما هى رفض عنيد من الرجل الأبيض للافريقى . وان القومية الافريقية هى رد الفعل لهذا الرفض . والافريقى لا يأبه بعدم تقبل الناس له فى البلاد الأجنبية ولكن يكره هذا الرفض فى موطنه الأصلى . انه يريد أن يحس بمعاملة الآخرين له كانسان ، له ما لهم . وتقف سيادة البيض عقبة فى وجهه وهو مصمم على ازاحتها من سبيله . ان القومية الافريقية صراع ضد سيادة البيض وسيستمر هذا الصراع الى أن يحل المنطق محل سيادة البيض . ذلك أن الناس بصرف النظر عن اللون أو الجنس يكرهون أن يعاملوا كطفيليين غرباء فى بلادهم التى ولدوا فيها ومن ثم فان انتصار القومية الافريقية سيكون انتصارا للكرامة والذات الانسانية .

الفصل الرابع

سيادة البيض في مجال التطبيق

يعتبر هذا الفصل الى حد ما امتدادا أو تطبيقا للفصل السابق وأن يكن ينظر الى الموضوع من زاوية أخرى ولكنه جدير بأن يبحث على حدة لأن الأساس هنا هو أن نقتفى أثر السيادة البيضاء فى مجال التطبيق وليس مجرد بحث مذهب أو فكرة . اننا نريد أن نعرف كيف يمس ذلك المبدأ حياة الافريقيين اليومية ولكى نفعل ذلك سنتتبع الموضـــوع فى مختلف قطاعات النشاط الانسانى .

سنحاول أن نرى أولا كيف يطبق هذا المبدأ الأوربى فى نطاق الحياة الاقتصادية . فالبيض كغيرهم من شعوب الاجناس الاخرى يساوون بين القوة الاقتصادية والقوة السياسية . فالقوى اقتصاديا لابد وأن يكون بالضرورة قويا سياسيا . ولما كانت سياسة سيادة البيض الأوربية تهدف الى ابقاء الافريقيين ضعفاء سياسيا . فان ذلك يستتبع منطقيا أن تكون اكثر الوسائل قابلة لاستبقاء الافريقى فى هذا المركز هو ابقاؤه ضعيفا من الناحية الاقتصادية . أى أن سيطرة الاوربيين السياسية تقتضى الاستغلال الاقتصادى .

وفى معظم البلاد الافريقية التى يحكمها الاوربيون لايطبق مبدأ الاجر المتساوى للعمل المتساوى الا فيما يتعلق بالجنس الواحد . فهو معمول به دون استثناء فى الأعمال المقصورة على البيض كما يطبق فى الأعمال التى لا يقوم بها الا الافريقيون وكذلك الحال بالنسبة للأعمال التى يتولاها

الآسيويون . أما فى الأعمال التى يتولاها أفراد مختلفو الفروق فلا تعترف به الحكومة ولا المؤسسات الصناعية وقد يتولى رجال من أجناس مختلفة نفس المناصب ولهم نفس المؤهلات وهم يتساوون فى الكفاءة ومع ذلك فان مكافأتهم الاقتصادية لا تقدر على أساس ما يستحقون بل بحسب لون بشرتهم . فيحصل الرجل الأبيض على أعلى المرتبات ويحصل الافريقى على أكثرها انخفاضا . أما الآسيويون والخلاصيون فيقفون فى الوسط بين هؤلاء وهؤلاء .

وفى مجالات الصناعة ، يحال بين الافريقى وبين الأعمال الفنية والمجزية. ويرفض البيض المساواة الاقتصادية تماما كما يرفضون المساواة السياسية مع الافريقى بل انهم ليبذلون قصارى جهدهم لاستمرار عدم المساواة على حالها بين البيض والسود ولو أن ذلك قام على أساس من العدل أى بناء على الكفاية لما خاصمهم فيه افريقى عاقل . ولكن الذى يؤلم الافريقى هو أن ينبنى ذلك على لهو عابث يضفون عليه اسم « قوانين التفرقة » ويحتفظ للبيض وحدهم بكل الوظائف الفنية ذات الأجور المجزية عامة أما الافريقى الكفء فيستبعد بحكم القانون من هذه الأعمال حتى يبقى مستوى دخله أقل ما يمكن حفاظا على سيادة البيض .

وتوزيع الأراضى فى كثير من البلدان الافريقية التى يحكمها الأوربيون مسألة شائكة ففى اتحاد جنوب افريقيا لا يمتلك الافريقيون الذين يمثلون ٦٤٪ من مجموع السكان سوى ١٣ر٧٪ من الأرض ، وفى روديسيا الجنوبية يملك الافريقيون أقل من ثلث الأرض بينما يزيد عددهم على مليونى نسمة ولا يزيد عدد البيض عن ١٨٠ر٠٠٠ ولا يختلف الأمر كثيرا فى كينيا . ويقر حتى المتحاملون من العالمين بأسباب ثورة ماو ماو بأن الأرض التى انتزعت من قبائل الكيكويو كانت من أهم الدوافع التى أدت

الى قيام هذه الثورة . فقد كان الاتجاه العام الذى يسير عليه توزيع الأراضى فى افريقية التى يملكها الأوربيون هو تركيز حشود كبيرة من الافريقيين فى مناطق صغيرة وسنتحدث عن آثار ذلك فيما بعد . والنقطة الثانية التى يجب أن نلاحظها هى أن أفضل الأراضى تخصص للملاك الأوربيين وتترك أسوأ المناطق ليحوزها الافريقيون .

ولنعد الآن الى معنى هذه الاتجاهات فى توزيع الأرض لنوضح الدائرة المفرغة التى تمثلها . ان تركيز الافريقيين فى مناطق صغيرة يجعل اكتظاظ السكان أمرا مألوفا . وفى بعض أجزاء افريقية التى يحتلها الأوربيون نجد اكتظاظا للسكان فى بلاد مخلخلة السكان ! ولابد للفائض فى المناطق الافريقية من الرحيل الى مكان آخر أكثر اتساعا . ومن ثم فهم يتدفقون من المناطق الوطنية الى المناطق الأوربية ، ولما كان الأوربيون والحكومة يمتلكون من الأرض أكثر مما يحتاجون وأكثر مما يستطيعون استغلاله فعلا فهم يقبلون هذا الفائض من السكان ويفرضون شروطهم الاقتصادية. والنتيجة فيض افريقى من المناطق الوطنية الى المناطق الأوربية . ومع أن هذا الترتيب ليس فى صالح الافريقيين الا أنه مرض للغاية بالنسبة للمزارع الأوربى الذى يحصل على قوة عاملة رخيصة تقيم فى أرضه .

ويقول فيليس تنتنالا بشأن الحالة فى جنوب افريقية :

« اذا قارنا بين المناطق الزراعية وبين عدد السكان الريفيين نجد أن ١٢٤ر١٨٦ر٠٠٠ مورجان من الأرض يملكها ويشغلها ٧٠٠ر٠٠٠ أبيض فقط بينما يتكدس ٦ر٠٢٥ر٥٤٧ افريقى فى ١٧ر٥١٨ر٩٧٧ مورجان تعرف « بالمعازل الوطنية » ان الافتقار الى الأرض هو مشكلة الافريقى وهو السبب فى تعاسته . هو افتقار يدفع بالناس قسرا الى العمل ، فى المناجم والمزارع حيث يساقون سوق البهائم الى معسكرات ومجمعات بحيث

ينال كل رجل صناعة أو مزارع أو ربة بيت ما يلزمه من الأيدى العاملة . ان المدن تطلب عملهم وحده ، أما أشخاصهم فلا ! » .

ويرتبط باكتظاظ السكان اكتظاظ الماشية . وتصبح زيادة عدد الماشية مشكلة حقيقية ، فماذا تفعل الحكومة ازاء ذلك ؟ انها تصدر قانونا بتحديد عدد رءوس الماشية التى يمكن للافريقى أن يمتلكها فاذا رفض الافريقى تطبيق القانون تولى القانون أمر عقابه . وحكومة البيض تفعل ذلك طبعا باسم صيانة التربة من التعرية . والمحافظة على الأرض والماء والمياه النباتية ! بيـد أن الأمـر الذى يخلق المرارة فى كثير من الافريقيين ، هو أنهم لا يستطيعون أبدا زيادة مواشيهم حتى أن الزيادة الطبيعية يعتبرها القانون تجاوزا فى عدد الماشية ومن ثم فهى جريمة لا يمكن تجنبها الا بالتخلص من هذه الزيادة .

وتستطيع أن نكرر ما قلناه بمجرد أن ننظر الى الأمر على هذا النحو . تقدم حكومة البيض « للأوربيين أرضا أكبر وأفضل وللافريقيين أرضا أفقر وأصغر » . وفى رعى الماشية « للأوربيين مواش أكثر وللافريقيين أقل » . ان كل البنيان الاقتصادى فى أفريقية التى يحكمها الأوربيون يعجز قدرة الافريقى على الكسب ، ويحط من قيمته الاقتصادية ويبقيها أخفض ما تكون ضمانا لبقاء سيادة البيض . ان المساواة الاقتصادية عند الرجل الأبيض العادى فى أفريقية تساوى تماما الخنق السياسى .

ولسيادة البيض نفس القوة فى الميـدان السياسى . ففى روديسـيا الجنوبية يتمتع الأفريقيون بحقوق سياسية واساس هذه الحقيقة مؤهلات لا صلة لها بالجنس . فباستيفاء الشخص لشروط معينة من القـدرة الاقتصادية والتعليم والسن والاقامة يسمح له بأن يسجل اسمه كناخب ولكن بينما يتمتع الافريقيون فى روديسيا الجنوبية بهذا الحق السياسى

الا أن امكان استيفاء الفرد لشروط الانتخاب أمر صعب اذ يقوم اقتصاد البلاد على أساس عنصرى بحيث يكاد يستحيل على الأفريقى الذى يحصل على أقل الأجور ان يستوفى الشروط . وهذا يصلح بالصدفة كمثل طيب للتأثير المتبادل بين الاقتصاد والسياسة فالحقوق السياسية ممنوحة للجميع دون أية تفرقة بسبب الجنس ولكن الشروط الموضوعة لممارسة هـذه الحقوق مصممة بحيث تجعلها مقصورة على البيض ولا يمكن الوصول الى هذه الحقوق السياسية العليا الا عن طريق سلم اقتصادى طويل . وتحاول حكومة البيض أن تقصر هذا السلم قدر استطاعتها للبيض بحيث تستطيع غالبيتهم الوصول الى هذه الحقوق ولكن نفس هذه الحـكومة تجعل السلم الاقتصادى أطول ما يكون بالنسبة للافريقيين حتى يستحيل . على أغلبهم الوصول الى نفس الحقوق وهى مباراة محضـة عقيمة من أولها الى آخرها .

وقد أبرزت هذه النقطة بوضوح حين زار وزير المستعمرات البريطانية السيد الن لينوكس بويد اتحاد روديسيا ونياسلاند . وتحدث اليه فى اجتماع خاص المستر هارى تكمبولا (رئيس برلمان روديسيا الشـمالية الأفريقى) وأتباعه بأن « الاتحاد هو تحطيم متعمد لآمال الأفريقى فى الاستقلال والحكم الذاتى داخل نطاق الكمنولث البريطانى ... لقـد خلق الاتحاد ليضع كلا من السـلطة الاقتصادية والسـياسية فى ايدى الأقليات الأوربية » .

لقد تم اقرار مبدأ الانتخاب المباشر للافريقيين فى اتحاد روديسـيا ونياسالاند . وهو يمارس ممارسة كاملة . فهناك اثنا عشر عضوا أفريقيا فى المجلس الحالى لاتحاد روديسيا ونياسالاند (١٩٥٩) يضـاف الى هؤلاء بنص الدستور ستة من الأعضاء الأوربيين المنتخبين خصيصا لتمثيل

مصالح الأفريقيين فى المجلس . ومما لا شك فيه أن الموافقة على التمثيل المباشر للافريقيين فى البرلمان تقدم كبير بالنسبة لكل ما يجرى فى اتحاد جنوب أفريقيا . ومع ذلك فاننا لا نستطيع أن نغمض عيوننا عن الوضع الشاذ القائم فى الاتحاد وهو أن من بين ٥٩ عضوا فى مجلس الاتحاد يوجد ١٨ يمثلون ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ أفريقي ويمثل الأعضاء الباقون وعددهم ٤١ عضوا ٢٢٠٫٠٠٠ فقط من البيض ! ويحل مبدأ اتخاذ القرارات بالأغلبية محل مبدأ سيادة البيض . وتتكرر هذه الظاهرة فى كل جزء من أفريقية التى يحكمها الأوربيون .

وقد بدأت قوى البيض السياسية فى شرق أفريقية البريطانية أى فى أوغندة وكينيا وتنجانيقا بدأت تحس أن وجود حكومة مقصورة على البيض فى بلد متعدد الأجناس أمر خطير بقدر ما هو غير منطقى ومن ثم فقد أقاموا نوعا جديدا من الحكومة المتعددة الأجناس ففى تنجانيقا مثلا حيث توجد ثلاثة أجناس أساسية اتبع نظام الـ ١٠ — ١٠ — ١٠ فى المجلس التشريعى وهذا يعنى ١٠ أوربيين يمثلون ٢٠٫٠٠٠ أبيض و ١٠ أفريقيين يمثلون ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ أفريقى و ١٠ آسيويين يمثلون ٧٥٫٠٠٠ آسيوى .

أما فى كينيا حيث يوجد حوالى ٦٫٠٠٠٫٠٠٠ أفريقى و ٤٤٫٠٠٠ أبيض فان تكوين الحكومة المتعددة الأجناس أقل موافقة للمقام فهناك ١٠ أعضاء أفريقيين فقط فى المجلس التشريعى المكون من ٦٠ عضوا .

ولقد اخترنا هذه الأمثلة لنبين مسئولية سيادة البيض عن هذه الأخطاء التشريعية التى بدأت تثير اهتمام الأفريقيين . وهناك رغبة قوية من جانب الكثيرين من البيض لالغاء هذا التمثيل المشترك كلية .

ولكننا يجب ألا نعتبر أن هذه الأخطاء تعنى أن السياسة البريطانية

هي أسوأ السياسات في أفريقية بل على العكس فقد سبق أن قلنا انها أفضل السياسات الأوربية ولكن هذا لا يعني انها يجب أن تستمر كما هي ، وقد سبق أن لاحظنا أن الأفريقي يتمتع ببعض المزايا في أفريقية التي تحكمها بريطانيا دون غيرها . ففي أفريقية البرتغالية والكونجو (البلجيكي) لا يتمتع الأفريقي بأية حقوق سياسية وحتى في أفريقية الفرنسية حيث يسمح للافريقي أن يصبح مواطنا فرنسيا بعد أن يستوعب فانه لا يمارس حق الانتخاب في أفريقية بقدر ما يمارسه في فرنسا . أما في أفريقية البريطانية فان الأفريقي الذي يحصل على حق الانتخاب يمارسه في البلد الأفريقي نفسه . وسنفصل الحديث في الفصل الأخير من هذا الكتاب عن الخطوات التي تتخذ الآن لتحسين هذا الموقف بين الجنسين الأبيض والأسود في أفريقية ، ولا نحاول الآن الا أن نفهم كيف يؤثر الاستعلاء الأبيض في الأفريقيين .

واذا ما زرت اتحاد جنوب أفريقيا وروديسيا الجنوبية وكينيا فستحييك كثير من اللافتات مثل « ممنوع دخول الأفريقيين » و « للأوربيين فقط » في الحدائق العامة والبوابات والحافلات ومحطات السكة الحديد وأماكن عامة أخرى . وتبدو هذه اللافتات باردة لا ضرر فيها ولكنها تولد في الأفريقي لهيبا مستعرا ولكي نساعد القارىء على أن يحس احساسا مماثلا لما يحسه الأفريقي حين يواجه تلك اللافتات التي تحقره يوميا تقترح التمرين التالي :

لنفرض أن أمريكيا زار مدينة أوربية فطالع في كل مكان لافتات تقول « ممنوع دخول الأمريكيين » . انه اذا ما رأى هذه اللافتات في القطارات والحافلات والحدائق العامة والمحطات ومكاتب البريد وأماكن عامة أخرى بحيث تطالعه أينما ولى وجهه ولم يثر هذا الأمريكي فهو قطعا

شخص غير طبيعي وليذهب أي بريطاني ليزور أي بلد من البلاد الأفريقية المستقلة كالحبشة أو السودان أو غانا وليرى لافتات « ممنوع دخول البريطانيين » تواجهه أينما ذهب فانه سيحس احساسا حادا بأن البريطانيين مكروهون وغير مرغوب فيهم فى هذه البلاد . تخيل اذن ما يحسه الافريقى حين يرى لافتات « ممنوع دخول الافريقيين » فى بلده الأصلى « انه لشيء مؤلم حقا أن يعامل المرء كذلك فى البلاد الأجنبية ولكنه أكثر ايلاما حين يحدث فى وطنه الأصلى » .

وهناك صور متعددة للتفرقة الاجتماعية المبنية على سيادة البيض نود أن نذكرها هنا . وهى قائمة على الملاحظة الشخصية فى مدى أكثر من ثلاثين عاما فى أفريقيا التى يحكمها الأوربيون . ولكننا لا نستطيع أن نقدم الأدلة على هذه الحالات . ولما كنا حريصين على ألا نبدو كما لو كنا نكتب موضوع انشاء خيالى فسنضطر الى أن نقتبس من أماكن أخرى حتى يستطيع القارىء أن يرى كيف تؤثر سيادة البيض على الحياة اليومية للافريقيين فى أفريقية التى يحكمها الأوربيون .

فجون جنتر وهو محايد ومرجع وصاحب نظرات عميقة للغاية فى الـكثير من المشكلات التى تواجه أفريقية فى القرن العشرين يقول « ان التفرقة العنصرية فى بعض جوانبها تمارس علنا فى روديسيا (الشمالية والجنوبية) أكثر منها فى أى مكان آخر فى أفريقية . حتى بالنسبة لكينيا واتحاد جنوب أفريقية .. ان التفرقة العنصرية فى روديسيا من أكثر الأعمال بربرية وخزيا واقذاعا فى العالم أجمع » .

« وحينما كنا فى لوزاتا (روديسيا الشمالية) لم يكن يسمح للافريقيين بدخول معظم الحوانيت الاوربية وكان عليهم أن يستعملوا الطرق الخلفية. كانوا يقفون فى صف طويل فى الغبـــار والمطر فى ممرات مظلمة بجانب

الحانوت أو فى خلفه حيث توجد بالحائط فتحة ذات قضبان . ومن خلال هذه الفتحة يطلبون حاجاتهم . وكان يدفع اليهم بالسلع من خلال هـذه الفتحة كذلك (هذا اذا التفت البائع الأبيض اليهم) ولم يكن مسموحا للافريقيين أن يلمسوا أو يمسكوا بأية سـلعة وليس فى استطاعتهم أن يتحسسوا قطعة من النسيج أو يجربوا أى شىء قبل شرائه . كما لم تكن لديهم أية فرصة للبحث أو الاختيار .

ولقد تحدثنا بما فيه الكفاية عن الحاجز اللونى الاجتماعى باعتباره التعبير العملى عن سيادة البيض ولن نثقل على القارىء بمقتطفات أخرى . ولنتحدث الآن عن التعليم فى البلاد الافريقية التى يحكمها الأوربيون . قاصدين من ذلك مرة أخرى أن نظهر كيف أن سيادة البيض كأسد يزأر ويجوب حقل التعليم الافريقى غير عابىء بمطالب العدالة التعليمية للشعب الافريقى ويبرز عـلى الفـور السؤال « لم لا يوجـد نظام التعليم الأبيض على افريقية ؟ . وللرجل الأبيض من حسن الأخلاق ما يجعله يعرف أن التعليم مفيد للافريقيين الا أن له أيضا من المكر السياسى (لا الحكمة) ما يعرف به أن فتح أبواب التعليم للافريقيين يعنى انتهاء حكم الرجـل الأبيض فى افريقية . لذلك فهو يتخذ طريقا وسطا ، فهو يمنح فرصة التعليم لأقلية من الافريقيين بحيث تبقى الأغلبية العظمى دون تعلم ولما كان يسيطر على السياسة والاقتصاد فى البلاد فانه يجد ذلك أمرا يسيرا . وهو يعلل عدم انتشار التعليم بالنسبة للافريقيين بعدم وجود مال فى خزائن الدولة . والى هنا ينتهى الأمر . ولكن هناك دائما من المال ما يكفى التعليم العام للأطفال الأوربيين . وحين يسألون عن تعليل هذا التناقض يجيبون عادة « ان الأطفال الافريقيين كثيرون جدا » .

ومن الحقائق التى تستلفت النظر أن اتحاد جنوب افريقية الذى ينتج

٤٥٪ من ذهب العالم الى جانب كميات كبيرة من المعادن والمنتجات الزراعية لا يستطيع تحمل نفقات التعليم العام للافريقيين . وأن الكونجو (البلجيكى) الذى ينتج ٥٠٪ من اليورانيوم و ٧٠٪ من الماس الصناعى فى العالم الى جانب كميات ضخمة من النحاس والزنك والذهب والمنجنيز وينتج سنويا ما يساوى ١٤ مليون جنيه من القطن وما يساوى ١١ مليون جنيه من البن و ١٠ ملايين جنيه من زيت جوز الهند لا يستطيع أن يتحمل نفقات التعليم العام للافريقيين .

وفى تنجانيقا تنفق الحكومة ٢٢٣ جنيه سنويا لتعليم الطفل الأوروبى أما الطفل الافريقى فهو يكلفها ٨ جنيهات و ٥ شلنات فقط . والطفل الآسيوى ٣١ جنيها . أما فى افريقية الاستوائية الفرنسية فمن المعروف أنه من بين ٤ ملايين افريقى يذهب ٢٠٪ فقط من الأطفال الى المدرسة فى حين أنه لو زاد عدد المدارس لأمكن لكثيرين أن يتعلموا بها ونستطيع أن نجد صورا مماثلة فى البلاد الافريقية الأخرى التى يحكمها الأوربيون الا أننا قد قلنا ما فيه الكفاية للتعبير عن آرائنا فى هذا المجال .

وقبل أن نترك هذا الجزء من المناقشة لنحاول مرة أخرى تفسير هذا الخلل : للأوربيين تعليم شامل وعدم تعليم عام للافريقيين . فما هو سبب هـذا الاختلاف فى المعاملة ؟ فى كل السياسات المعلن عنها لبعض القـوى الأوروبية ، الاجابة على ذلك .

لقد قال ج . ج . ستريدوم رئيس وزراء جنوب افريقيـة السابق فى سنة ١٩٥٣ :

« ان سياستنا هى أنه يجب أن يحفظ الأوربيين مركزهم وأن يظلوا أسيادا فى جنوب افريقية فاذا أطرحت فكرة « الهرتفولك » والمبدأ الذى يقول ان الرجل الأبيض لا يستطيع أن يبقى سـيدا اذا منحت الحقوق

السياسية لغير الأوربيين واذا منح غير الأوربيين حق التمثيل السياسى وحق الانتخاب وقف الأوربيــون وغير الأوربيين عــلى قدم المساواة فكيف يستطيع الأوربيون أن يبقوا أســيادا . أنت ترى أن على الأوربيين أن يحافظوا فى كل المجالات على حقهم فى حكم البلاد والابقاء عليها وطنا للرجل الأبيض » .

ان هــذه الرغبة القوية بين الأوربيين فى التحكم فى افريقية تعكس نفسها فى انعدام التعليم العام بالنسبة للافريقيين . وقد لا تعبر كثير من القوى الأوربية التى تحكم أجزاء عديدة من افريقيا عن رأيها بنفس الطريقة التى عبر بها ستريدوم الا أنهم يشاركونه نفس الاحساس والنتيجة هى سياستان مختلفتان فى التعليم فى نفس البلد الذى يحكمه الأوربيون .

ويحس الافريقيون كيف أن الأوربيين يحاولون ابقاءهم متأخرين عن طريق المنع العمد للتعليم العام ومن الواضح أن هناك علاقة بين هذا الوعى وبين ظهور القومية الافريقية . ويقول جون جنتر ان أولو الزعيم النيجرى قد قال فى حديث له « ان البريطانيين لم يوجهوا عنايتهم لمصالح البلاد بقلب خالص . فقد قامت الحكومة النيجرية فى ١٤ شهرا (منذ استقلالها) بأكثر مما فعله البريطانيون فى ١٢٠ سنة » .

وبالرغم من أننا لا نستطيع أن نبلغ هذه « المبالغة » فان هناك قدرا كبيرا من الحقيقة فى قولنا ان أى بلد لا يمكن أن يحصل على أكبر قدر من المنفعة اذا كان يدار أصلا لمنفعة بلد آخر . وتذكر الهند نفس القصة فمنذ أن حصلت على استقلالها زادت سرعة التقدم فى البلاد . وقد قال المبجل ديفابريا م . أ . جريجورى من كنيسة جنوب الهند فى مديورا حين حصل الشعب الهندى على الاستقلال بدأ الناس فى العمل بحماس لتحسين بلدهم. فقد أحسوا انها ملك لهم وانهم يعملون لصالحهم لا لصالح البريطانيين .

وقد بث استقلال الهند فى نفوس شعبنا دافعا قويا للعمل . فلا غرو اننا استطعنا أن نخدم بلدنا طوال عشر سنوات بأكثر مما فعله البريطانيون خلال ١٥٠ سنة » .

وليس فى نيتنا هنا أن تقلل من شأن بريطانيا فاننا نعرف أن بريطانيا قد أرست بوسائل عديدة أسس النمو الذى تخطو اليه الهند فى أوائل فترة استقلالها . ونحن نذكر هذه الحالة للتدليل فقط على أن أى قوة مستعمرة تعمل على رعاية مصالحها أولا وتميل الى تجاهل المطالب الشرعية لسكان البلاد الأصليين .

اننا هنا نحاول أن نقول ان هناك شعورا عارما بالاستعجال بين الافريقيين وأن موجة من الوعى بأن شعوب افريقية كتب عليها التخلف علميا واقتصاديا وسياسيا تكتسح القارة كلها . وهناك عزم أكيد على تصحيح هذه الأوضاع . وقد أضافت هذه الرغبة الجديدة مزيدا من الحيوية للصورة الافريقية ويجب أن توجه هذه الحيوية الى المجرى السوى لخدمة كل الأجناس التى تعيش فى افريقية .

اننا لم نمس مباشرة حتى الآن المسألة الهامة وهى العلاقات الانسانية وان كنا قد طرقناها بطريقة غير مباشرة . فقد رأينا كيف أخر الافريقى اقتصاديا وحرم من حقوقه السياسية . وأصبح طريد مجتمعه محتقرا ذليلا لا يلتفت الى تعليمه وكيف بقى متخلفا عن عمله . وما نناقشه بعد ذلك هو : كيف تأثرت آدمية الافريقى بهذه الاجراءات البدائية ؟

وقبل الاجابة على هذا السؤال يجب أن نذكر أولا أن انخفاض التقدير المادى ، والسيطرة السياسية والتفرقة الاجتماعية وقلة التعليم اذا وقعت على شعب ما . سواء كان أسودا أم أبيضا أم أصفرا أم أسمرا لابد وأن تحدث أثرها السيىء فى الحط من قدر هذا الشعب . فاننا لا نستطيع أن

نجرى تفرقة عنصرية وتأخرا اقتصاديا على شعب من الشعوب دون أن يؤثر ذلك فى الحط من انسانيته . ولا يستطيع جنس من الأجناس أن يسيطر على جنس دون أن يحرم الأول الآخر من حقوقه الانسانية . وسيطرة جنس واحد فى مجتمع متعدد الأجناس يؤدى الى اعتبار الأجناس الأخرى أوفى منه مرتبة هذا اذا لم ينزل به الى حالة أقل من مستوى الانسان . وتصبح حياة هؤلاء المحكومين غير ذات قيمة تقريبا بالنسبة لحياة أفراد الجنس الحـاكم .

اننا بذلك نكون قد وصلنا الى زاوية أخرى ننظر منها الى ظهور القومية الافريقية . ألا وهى أن موقف الافريقى الحازم فى مواجهة سيادة البيض هو رد الفعل العملى ضد من يحاولون الحط من انسانيته أو مركزه كانسان. ورغبته فى الاستقلال التام هى وسيلة أخـرى للتخلص من أداة الحكم الأوربية . التى تكرر له فى اصرار « انك لست انسانا بالمعنى الحقيقى » . ان رفع شأن الافريقى هو رفع شأن الانسانية وأن من يساندون القضية الافريقية يساندون قضية الانسانية ومن باب المصادفة أليس راديو الحرية الموجه لشرق أوربا الذى يحكمه الشيوعيون صراع من أجـل حقوق الانسان ؟ وهنا تتشابه حالة شرق أوربا مع حـالة افريقية التى يحكمها الأوربيون . والفرق الوحيد هو أن شرق أوربا يأمل فى التخلص من سيطرة روسيا وتريد افريقية أن تتخلص من السيطرة الأوربية .

اننا لن نستمر فى الضغط على هذه النقطة حتى نعود اليها فى الفصل الأخير حين نلخص نتائج مناقشاتنا ونبين ما نعتقد على ضوء بحثنا أنه الاتجاه الطبيعى للعمل . ولكن يكفينا الآن أن نقرر أنه فى أى مجتمع متعدد الأجناس يعتبر أحد أجناسه بحكم القانون موضع تقديس الأجنـاس الأخرى . يصبح سير العدالة الانسانية مسـتحيلا حـين يتعلق الأمـر

بالمسيطرين والمسيطر عليهم . وقد صدق بعض الوعاظ الافريقيين حين وصفوا سيادة البيض « بأنها عجل الرجل الأبيض الذهبى المقدس الذى تضطر حتى العدالة نفسها أن تنحنى له احتراما » .

ويقول الان باتون الخبير بالمشــكلات الأساسية للشعوب الافريقية « ان شيئا واحدا يبدو واضحا وهو أنه لا يمكن أن يصمد أى حل سياسى للمشكلة الا اذا سانده الافريقيون الذين أدركتهم الصــحوة السياسية والذين لم تدركهم الصحوة السياسية بعد . ونصبح نحن البيض حمقى لو تصورنا أن الافريقيين سيساندون حلا يبدو لهم أنه يحط من كرامتهم كآدميين . واذا كان هناك شيء أعرفه أو أفهمه عن الافريقيين فهو ظمأهم الشديد لأن يعترف بهم سكان العالم كاخوان متساوين » .

الفصل الخامس

الافريقي نفسه

اننا حتى الآن لم نحاول أن نرسم صورة الافريقى قبل حضور الأوربى فقد وجهنا كل اهتمامنا للقوى الخارجية التى تنشط القومية الافريقية وتكونها وتشكلها ونأمل فى هذا الفصل أن نجيب على هذه الأسئلة : هل عرف الافريقى أى معنى للحرية قبل قدوم البيض الى أفريقيا ، وهل كان يحرص عليها ؟ وهل كان مستعدا للدفاع عنها اذا ما هددت تهديدا فعليا أو احتماليا ؟ هل كان للافريقى تنظيمات ديمقراطية قبل العصر الأوربى فى افريقيا ؟ وسنرجىء الاجابة على السؤال الأخير الى الفصل التالى .

يؤكد كثير من الأوربيين ويصرون على أن الحرية عرفت طريقها الى افريقية مع قدوم الرجل الأبيض . وأن الديمقراطية أيضا دخلت مع الأوربيين . وأن الضجة الافريقية الحالية حول الحرية والديمقراطية ليست سوى ضجة من أجل « أشياء الرجل الأبيض » ومن ثم فمهمتنا الأساسية هى محاولة تحديد وجود أو عدم وجود الحرية والديمقراطية قبل قدوم الرجل الأبيض الى افريقيا . وأسئلتنا الرئيسية هى : هل الحرية والديمقراطية أصيلتان أم غريبتان عن افريقية ؟ وهل وجد الصراع الافريقى الحالى من أجل الاستقلال قبل أو بعد الاحتلال الأوربى ؟ .

وللاجابة على هذه الأسئلة يجب أن نفحص بشكل عام ودون دخول فى التفصيلات بعض النواحى الهامة فى الحياة الافريقية ألا وهى فقه اللغة

ونظام الرق والتاريخ الافريقى ثم أخيرا النظم التشريعية والقضائية وهذه سنناقشها فى الفصل التالى .

ان قواعد اللغة الافريقية حتى فى أبسط صورها تعطينا المعلومات التى تلقى مزيدا من الضوء على بحثنا هذا وسيزيد الجدول الآتى هذه النقطة وضوحا :

(ان كلمة حرية فى اللغات المختلفة هى) :

الانجليزية	Freedom
الفرنسية	Liberté
البرتغالية	Liberdade
اللاتينية	Libertas
الأسبانية	Libertad
الزولو — جنوب افريقيا	inkululeko
الهوكسا — جنوب افريقيا	inkululeko
النوبيل — جنوب روديسيا	inkululeko
الشونا — جنوب روديسيا	rusununguko
السوذو — بازوتولاند	Tokoloho
الايبو — نيجيريا	efe
انجا — غانا	Henoyeli
الايوى — غانا	Vovome
انسيوى — غانا	fawohodie

أما اذا بحثنا فى نظام الرق ، فان الجدول الآتى واضح الدلالة ، فكلمة « رقيق » وكلمة « رق » هى فى :

الانجليزية	Slavery	Slave
الفرنسية	Esclavage	esclave
البرتغالية	Escravatura	mancirium
اللاتينية	Servitus	Escravo
الأســبانية	Esclavitud	Esclavo
الزولو	ubuqgili	Isiqgili
الاكسوزا	ubuqgini	Isiqgini
النوبيــل	ubuqgili	Isiqgili
انشوفا	nhaphwo	Lekhoba
السوذو	bokhoba	nhaphwa
الأمهــرية	barnet	oru
الايبى	igba-ora	baria
الجــا		nyon
الأيوى	Khuvinyenye	amefele
التيوى		Donko

وغرضنا الأساسى ليس هو فقه اللغة فى ذاته ؛ ولكن ما تلقيه هــذه البيانات اللغوية من الضوء على بحثنا الراهن فى وجود أو عدم وجــود الحرية بين الشعوب الافريقية قبل مجىء الرجل الأبيض . ويظهر لنا من الجدولين أنه ليس هناك أى تشابه لغوى بين الكلمات الأوربية والكلمات الافريقية . ان الكلمات الافريقية بعيدة عن أوربا بعد الكلمات الأوربيــة عن افريقيا . وليس هناك أى صلة لغوية فعلية بين الكلمات الأوربيــة والكلمات الافريقية ومن ثم فنحن لا نستطيع أن نتجاهل النتيجة المنطقية

وهى أن مفهوم الحرية ليس غريبا عن افريقيا بل أصيل فيها . وبناء على معلوماتى العامة فى أصل اللغات الافريقية وخاصة لغة الباتتو لا تخلو أية لغة افريقية من كلمة أو عبارة للحرية والعبودية .

ولكن وجود كلمة الحرية فى اللغات الافريقية التى ذكرناها لا يعتبر دليلا كافيا على أن الحرية كانت حقيقة واقعة بين الشعوب الافريقية . فالوجود اللغوى لكلمة حرية أو عبودية قد يماثل وجود كلمة ملاك أو جن فهل انبثقت هذه الكلمات من الخيال الجامح ومن واقع الحياة ؛ أو بمعنى آخر هل لهذه الكلمات مفهوم تاريخى أو مجرد مفهوم خيالى ؟

من المعلومات التاريخية العامة أن الرق وجد فى افريقية قبل قدوم الرجل الأبيض بمدة طويلة . فوجود طبقات من الناس هما الآسر ، والأسير، السيد والعبد ينتج عنه منطقيا وجود الحرية وعدم وجودها ، فاذا كان الرق فى افريقية معروفا قبل مجىء الرجل الأبيض فان ذلك يستتبع أن الحرية كانت معروفة أيضا فالعبودية هى حرمان الانسان من حريتـه . وحيث لا توجد حرية لا يمكن أن يقوم الرق . لقد وجدت الحرية والعبودية فى مجال تاريخى واحد لا فى كنف نظام خيالى . وذلك أمر مهم لأنه يلقى بعض الضوء على الحقيقة الواقعة من أن جذور الصراع الافريقى الدائر الآن من أجل الاستقلال تمتد الى ما قبل أيام الأوربى واللغات الافريقية دليل حى على ذلك .

ونعود الآن الى التاريخ الافريقى ونبحث عما نستطيع أن نستخلصه من معلومات تؤيد الحقيقة اللغوية فى أصالة الحرية فى القارة الافريقية أو تدحضها ولن نحاول هنا أن نشمل بالبحث كل البلاد الافريقية . ولكننا نكتفى ببعض الأمثلة لنبين أنه سبق قدوم الرجل الأبيض الى افريقيا بمدة طويلة كما أوضحنا من قبل قيام حروب قبلية مروعة أدت الى استعباد

بعض القبائل لقبائل أخرى . وسيطرة بعض القبائل على البعض الآخر ، وسنبدأ بتاريخ غرب افريقيا .

ان تاريخ الحروب القبلية فى غرب افريقيا لتاريخ طويل معقد . ولن نستطيع هنا أن نخوض فيه ، ولكى نحصل على دراسة مختصرة تعطينا صورة سريعة للصراع القبلى تحيل القارىء الى كتاب ت . ر . باتن الصغير « افريقيا الاستوائية فى تاريخ العالم » الجزء الثالث . ولا نستطيع هنا الا أن نلقى الضوء على بعض الحقائق التاريخية ففى ساحل الذهب مثلا كانت توجد عدة قبائل تعادى الواحدة منها الأخرى وغالبا ما كانت تنقض القبيلة الأقوى على القبيلة الأضعف فتسلبها حريتها وبمرور الوقت كانت القبيلة المهزومة تحاول أن تستعيد استقلالها الضائع . وذلك بأن تقوم بثورة على المنتصرين . وكانت القبيلة المهزومة تلجأ أحيانا الى مساعدة قبيلة قوية أخرى لتستطيع أن تتخلص من سيطرة القبيلة المنتصرة وتستعيد استقلالها المفقود . وان صراع الحياة أو الموت بين قبائل الأشانتى والفانتى لمثل جيد فى هذه الناحية . فقد كان استقلال الفانتى مهددا دائما من الأشانتى مما ألجأ الفانتى الى طلب الحماية الأوربية لتحفظ لهم كيان القبيلة ووحدتها ضد الأشانتى . وهكذا مع الوقت انقلبت الحماية الأجنبية الى سيطرة أجنبية . وقد حدث نفس هذا الصراع القبلى بين اليوربا وقبائل أخرى فى نيجيريا .

ويكشف تاريخ الباتنو فى جنوب خط الاستواء عن نفس الصراع بين القبيلة المنتصرة والقبيلة المهزومة . ففى زولولاند مثلا ظهر فى أوائل القرن الماضى عبقرى عسكرى أسود اسمه شاكا . كان يلقب أحيانا « بنابليون جنوب افريقيا الأسود » . وقد هزم عدة قبائل صغيرة ووحدها فى أمة الزولو ثم بدأ بعد ذلك خطة فتح واسعة ، وهاجمته القبائل الأخرى التى

كان يهدد سيادتها ولكنها فشلت . وحينما أحست بأنها لن تستطيع أن تتمتع بحريتها واستقلالها مع تهديد « شاكا » لها بالاستعباد والموت والفناء هاجروا الى أماكن مجهولة يحدوهم الأمل فى أن يعيشوا فى سلام وحرية كاملة . وهكذا بدأت هجرة الباتتو فى أوائل القرن التاسع عشر . فهرب الانجونى خوفا من غضب شاكا واستقروا فيما هو نياسلاند الآن . وهرب الشنجانى من زولولاند واستقروا فيما هو الآن افريقية الشرقية البرتغالية . وعبر النوبيلى جبال دراكنسبرج واستقروا مؤقتا فيما يسمى الآن الترانسفال . ولكن البوير طاردوهم هنا فعبروا نهر ليمبوبر (الذى سماه « روديارد كبلنج » النهر العظيم الرمادى الأخضر اللزج) واستقروا فيما هو الآن روديسيا الجنوبية . أما المانتاتى فقد اتجهوا غربا وهاجموا بتشوانا ثم تحولوا فيما بعد الى الجريكوا فى الجنوب وبعد أن هزمتهم هذه الأخيرة هربوا شمالا واستقروا على نهر الزميزى بجوار شلالات فيكتوريا المشهورة . وهؤلاء هم الماكولولو الذين التقى بهم فيما بعد الدكتور دافيد ليفنجستون .

ولن نثقل على القارىء أكثر من ذلك بتاريخ البانتو ولكننا نريد منه أن يلاحظ هذه النقاط حتى يستطيع أن يفهم بوضوح أكثر الاتجاه الذى تسير فبه القومية الافريقية الآن . لقد أخضعت القبائل الافريقية الواحدة منها الأخرى . وسلبت بعضها البعض الحرية قبل أن يظهر أثر الرجل الأبيض على القارة الافريقية كلها بمدة طويلة . وقد كانت القبائل المغلوبة تحاول مرات ومرات أن تستعيد حريتها فكانت تثور فى وجه المنتصر . أو كانت القبائل المهزومة تتحد فى وجه القبيلة المنتصرة ، فاذا لم يكن ذلك مستطاعا لجأت تلك القبائل المهددة بالاخضاع الى الهرب من وجه الغازى حيث تستطيع أن تحافظ على استقلالها وكانت قلوبها تضطرم بالرغبة فى

الحرية والاستقلال أثناء هروبها من وجه الغازى ؛ ومن ثم فان الحرية لم تكن معروفة لغويا فقط فى افريقية ، بل كانت معروفة تاريخيا أيضا . ويمكن مقارنة هجرة قبائل الباتتو من زولولاند الى الشمال والغرب بالهجرة العامة من أوربا الى أمريكا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فقد كان الأوربيون يهربون من الاستبداد فى بلادهم ، تماما كما هرب الباتتو من استبداد شاكا فى زولولاند . لقد أراد الأوربيون أن ينشئوا لهم مستقرا فى العالم الجديد حيث يمكن أن يعيشوا فيه أحرارا . كذلك أرادت قبائل الباتتو أن تجد لنفسها مكانا تتمتع فيه بالحرية ، وقد يكون مملا أن نستمر فى الموازنة بين صراع الأوربيين والباتتو من أجل الاستقلال وكل ما نريد تقريره هو أن الصراع الافريقى من أجل الاستقلال بدأ قبل مجىء الرجل الأبيض الى افريقيا بأمد بعيد .

كان لقدوم القوى الأوربية الى افريقية نتائج هامة معينة . فقد استمالت اليها القبائل الضعيفة وحرضتها على القبائل القوية ومنحت هذه القبائل الضعيفة حماية حقيقية . ولكنها بذلك أيضا أخضعت القبائل صاحبة السيادة اخضاعا مباشرا للسيطرة الأوربية . وأصبح كل من المنتصر والمهزوم خاضعا للقوى الأوربية وكان فى هذه السيطرة الأجنبية راحة كبرى للقبائل المهزومة عوضتها عن الحرية التى كانت قد سلبتها القبائل الحاكمة . ولكن هذه السيطرة الأجنبية الجديدة كانت شوكة فى جنب القبائل التى كانت لها سيادة يوما ما . ونستطيع أن نوضح هذه النقطة اذا ذكرنا مقتطفات مما اعتاد بعض الافريقيين قوله أثناء الحرب العالمية الثانية حين كانوا يسألون هل يفضلون أن يخضعوا للحكم الألمانى ؟ فكانوا يردون : لا فرق عندنا بين أن نكون تحت حكم البريطانيين أو تحت حكم الألمان ففى كلا الحالتين سنكون

خاضعين لحكم أجنبى ، وفى قرارة نفوسهم كان الكثيرون منهم يتمنون انتصار ألمانيا حتى تعرف القوى الأوربية فى افريقية وتجرب كيف تكون الحياة فى ظل حكم أجنبى ، تماما كما سعدت القبائل المهزومة حين رأت القبائل المنتصرة تشاركها الخضوع لسلطان أجنبى . والحقيقة أن القوى الأوربية استعانت بكثير من هذه القبائل المحكومة لتنتصر على القبائل الحاكمة .

ولم تميز الادارة الأوربية الجديدة القائمة على القوة العسكرية بين القبائل التى كانت حاكمة والتى كانت محكومة . بل عوملت كل القبائل بنفس الطريقة وبرمت القبائل التى كانت تحكم من وضعها عـلى قدم المساواة مع القبائل التى كانت محكومة ، كذلك أحست القبائل التى كانت محكومة والتى ساعدت فى هزيمة القبائل الحاكمة بخيبة أمل لأن الادارة الأوربية الجديدة لم تمنحهم امتيازات خاصة بل اعتبرتهم جميعا « عصابة من الوطنيين » . وقد ساعد ذلك كثيرا فى التقريب بين القبائل المتعادية التى سرعان ما اتحدت ضد العدو المشترك الجديد .

وثمة نقطة أخرى يجب أن نناقشها قبل أن نسترسل فى تتبع مجهودات الافريقيين لاستعادة استقلالهم المفقود وهى تقسيم افريقية بين القوى الأوربية . فحينما استقرت خريطة افريقيا أصبحت التحـركات الكبيرة للقبائل أمرا محرما . وقبل استيلاء الأوربيين على افريقية كانت القبيلة التى لا تستطيع التخلص من حكم قبيلة أخرى أو التى لا تستطيع حماية نفسها ضد قبيلة تهددها كانت تنتقل برمتها الى جزء آخـر من الأرض حيث تستطيع أن تحيا فى سلام وحرية . ولكن ذلك أصبح مستحيلا بعد احتلال افريقية اذ تعوقهم الآن الحدود السياسية الواضحة . وتحوم على رؤسهم السيطرة الأجنبية فلا يستطيعون الانتقال الى مكان آخر يجدون فيه

استقلالهم . وليس ثمة بد من أن يحاربوا من أجل استقلالهم ، فلم يعد من المستطاع أن يحلوا المشكلة بالانتقال الى الشمال أو الجنوب .

ويظن كثير من الغربيين أن الافريقيين سعداء للغاية تحت لواء الحكم الأوربى وأن ذلك الصراع الراهن ضد الحكم الأوربى انما مصدره أقلية افريقية متعلمة متعطشة الى السلطة . ونحن نريد أن نناقش هذا الجزء من المشكلة وعلينا فى سبيل ذلك أن نرجع الى الحقائق التاريخية اذ ليس هناك وسيلة أخرى لاثبات أو نفى فكرة أن الافريقيين يريدون أن تحكمهم القوى الأوربية الحالية ويمكن أن تقدر كفاح الافريقيين التاريخى لاستعادة استقلالهم أو للتخلص من التهديدات الأوربية لاستقلالهم تقديرا أدنى اذا تتبعنا الحركات التى قامت بها قبائل مختلفة من وقت لآخر . ومن بين الوقائع التاريخية الواردة فى تذكار استقلال غانا فى ٦ مارس سنة ١٩٥٧ ذكرت الأحداث الهامة التالية .

١٨١٧ — الارسالية البريطانية الى اشانى .

١٨٢١ — أمسكت الحكومة البريطانية بمقادير الأمور ووضعت المستعمرات البريطانية تحت سيطرة حكومة سيراليون .

١٨٢٤ — هزم الاشانتى البريطانيون وقتل الحاكم سير شارلز مكارتى .

١٨٢٦ — هزم الاشانتى فى رودوا .

١٨٧٣ — هزم جيش الاشانتى فى المينا .

١٩٠٠ — احتل الاشانتى كوماسى لكنهم هزموا .

كذلك يحفل تاريخ جنوب افريقية بالأمثلة العديدة لعدم رضى القبائل الافريقية بالخضوع للحكم الأوربى . وتلقى الحروب المشهورة بين المستوطنين الأوربيين والاكسوزا والتى تعرف بحروب الكافير مزيدا من

الضوء على محاولات القبائل الافريقية من آن لآخر للمحافظة على كيانها ضد الغزاة الأجانب .

وقد حدثت مثل هذه الثورات فيما يعرف الآن بروديسيا الجنوبية . ففى سنة ١٨٩٦ ثار الميتابيل ضـد البريطانيين على أمل أن يستعيدوا استقلالهم . ولكنهم فشلوا ، وفى نفس السنة قام المشاونا بثورة فاشلة وأخمدتهم البنادق البريطانية بسرعة . وفى السنوات الأخيرة قامت قبيلة كيكوبو التى كانت تكون الجزء الأكبر من حركة الماو ماو بمحاولة لاستعادة استقلالها ولكن دون جدوى .

ويكفى ذلك لاظهار أن الحكم الأوربى الحالى لافريقية لم يستطع المحافظة على كيانه فى كثير من الجهات الا بواسطة القوى العسكرية الأوربية وان أى خضوع من الافريقيين للحكم الأوربى لا يقوم على التصميم والاختيار بل على الجبر . وفى كل مرة حاول الافريقى أن يستعيد استقلاله المفقود كانت البنادق الأوربية تنطلق بسرعة عن السيطرة الأوربية ضد الحرية الافريقية . وفقد الافريقى فى النهاية ايمانه برمحه كوسيلة لاسترداد حريته التى سلبها الأوربيون فقد كانت البنادق أقوى بكثير مما يحتمل . ومن ثم فقد اتبع لفترة ما فلسفة عدم الاكتراث وحاول أن يستفيد قدر الامكان من هذه الحالة السيئة ولكن حتى هذه الفلسفة التى اعتنقها اخيرا لم تطفىء شعلة الحرية فى قلبه . بل ظل قلبه يصبو الى الحرية . ذلك الحق الفطرى لكل انسان عادى . وحاول أن ينظم صفوفه فى هدوء بعد أن فشل العنف . وأخذ يتطلع الى نيل حريته يوما ما . ويؤدى بنا ذلك الى ناحية أخرى من نواحى البحث .

ان المنظمات السياسية الافريقية أكثر بكثير من أن نحاول بحث كل مناهجها وسنقتصر على بعض أمثلة نأخذها من هنا وهناك لنبين أن الكفاح

الافريقى من أجل الحرية بعد أن فشل فى تحقيق أهدافه عن طريق الحركات العسكرية قد غير الآن من وسائله . وتظهر قائمة الحركات السياسية الافريقية التالية بوضوح رغبة الافريقى فى نيل حريته فى أرض الوطن . وقد تختلف هذه الحركات فى تعبيرها عن أغراضها وأهدافها . وقد تتباين وسائلها فى تحقيق هذه الأهداف والأغراض ولكنها جميعا تتفق على أمر واحد هو استرداد الحرية المسلوبة .

١ — المؤتمر الوطنى الافريقى لجنوب افريقيا .

٢ — مؤتمر اتحاد ساحل الذهب الذى خلقه مؤتمر حزب الشعب برئاسة كوامى نكروما فى سنة ١٩٥٠ .

٣ — اتحاد الافريقى الوطنى فى تنجانيقا .

٤ — المؤتمر الافريقى الوطنى فى أوغندا .

٥ — المؤتمر الافريقى القومى فى روديسيا الشمالية .

٦ — المؤتمر الافريقى القومى فى نياسالاند .

٧ — المؤتمر الافريقى القومى فى روديسيا الجنوبية .

٨ — المؤتمر الافريقى فى كينيا .

ونعود فنذكر أن كل هذه المنظمات السياسية الافريقية البحتة قامت كنتيجة لفشل الافريقيين فى استرداد حريتهم بالوسائل الحربية . وكنتيجة لحب الافريقى للحرية . ويعطل هذه المنظمات ويشل حركتها من حين لآخر التشريعات التى يصدرها الأوربيون بقصد جعلها غير قادرة على الحصول على الحرية السياسية لافريقية . ولكنها برغم ذلك كله لم تغمض عينها لحظة واحدة عن هدفها الأساسى وهو حرية افريقية . وسنزيد هذه النقطة

وضوحا حين نلخص بعض الخطط التى وضعتها بعض هذه المنظمات وقامت بتنفيذها .

ولقد بدأ المؤتمر الوطنى الافريقى بجنوب افريقية سنة ١٩١٢ وكان اسمه حينذاك مؤتمر الباتتو لجنوب افريقية . وقد نشأ هذا المؤتمر نتيجة لقانون اتحاد مستعمرة الكاب وناتال . وولاية اورانج الحرة والترانسفال فى سنة ١٩١٠ والذى أوضح أنه لا يجوز قبول الافريقى كمواطن فى الاتحاد . وأن يكون الجنس واللون هما المعيار الوحيد الدائم لتقييم حقوق الانسان . وسرعان ما وحد هذا التهديد الموجه ضد الحرية الافريقية القبائل المتعادية فتخلى الزولو والاكسوزا والسوذو والشانجاتى والفندا عن قبيلتهم واتحدوا كشعب افريقى يقف فى وجه الحكم الأوربى الذى يحط من شأنهم كافريقيين .

وفى سنة ١٩١٣ أصدرت حكومة اتحاد جنوب افريقية « قانون الأراضى » الذى قضى بالعزل بين البيض والسود فى المناطق الريفية . ولمواجهة هذا القانون الممقوت جمع المؤتمر الأموال وأرسل الى انجلترا فى سنة ١٩١٤ وفدا قويا ينوب عنه فى الدفاع عن القضية الافريقية . ولكن الوفد فشل واستمر نشاط المؤتمر رغم معارضة السلطات القوية . وقد نظم فى سنة ١٩٥٢ مقاومة سلبية ضد كل قواعد التفرقة فى جنوب افريقية . وأسلم الى السجون آلافا من الافريقيين كانوا على أتم استعداد لشراء حريتهم بالتضحية والفداء . ولكن الحكومة كانت أقوى مما يتحمل المؤتمر فأخضعت المقاومة الافريقية لارادتها .

ويهيىء لنا ساحل الذهب (غانا الآن) دراسة طيبة للحركات السياسية الافريقية التى تهدف الى استرداد الشعوب الافريقية لحريتها . فقد نشأ مؤتمر اتحاد ساحل الذهب من أجل الحصول على حرية الافريقيين السياسية وفى سنة ١٩٤٩ خلفه تنظيم جديد هو مؤتمر حزب الشعب . وكان هذا

الحزب هو الذى منح القوة للدكتور كوامى نكروما سنه ١٩٥١ وكان نفس هـــذا الحزب هو المسئول عن خلقه دولة غانا المســتقلة (٦ مارس سنة ١٩٥٧) وكان شعاره منذ البداية هو « الحكم الذاتى حالا » .

لقد تساءلنا فى أول هذا الفصل « هل كان لدى شـــعوب الافريقيين مفهوم للحرية قبل مجىء الرجل الأبيض الى افريقيا ؟ وقد بينا لغويا وجود الحرية قبل مجىء الرجل الأبيض الى افريقية كما أظهرنا تاريخيا كيف كافح الافريقى لاسترداد استقلاله والمحافظة عليه قبل الاحتلال الأوربى لافريقية . فصراع الافريقيين من أجل استقلالهم قديم قدم صراع الأوربيين من أجل استقلالهم ، وباختصار فان مفهوم الحرية السياسية أصـــيل فى أفريقية اصالة الافريقى نفسه . وقد نجحت القوى الأوربية مؤقتا فى كبت رغبة الافريقيين فى الاستقلال ولكن على حد قول فرويد فى كتابه « مبادىء التحليل النفسى » ان الرغبة المكبوتة تظل موجودة فى العقل الباطن تنتظر فرصتها لتعمل » . والقومية الافريقية كما سبق أن ذكرنا هى رغبة الافريقى المكبوتة للحكم الذاتى تفرض نفسها على الظروف المعادية . ولا يطالب الافريقيون فى كفاحهم من أجل الاستقلال بما يملكه الرجل الأبيض ولكن بممتلكاتهم هم التى سرقها منهم الرجل الأبيض .

واذا كان ثمة ما تؤكده القومية الافريقية الآن فهو أن الافريقى محب للحرية كالأوربى والأمريكى سواء بسواء . وليس من صالح الغربيين أن يظنوا أن الحرية صالحة للرجل الأبيض دون الافريقى فاللغة والتاريخ الافريقيان يظهران بوضوح أن الافريقى يؤمن بالحرية ويحارب من أجلها ويتعذب فى سبيلها ويموت فداءها . ان القومية الافريقية نداء الى القوى الأوربية « أن أعيدوا الينا حريتنا » ويدور كل الصراع فى افريقية حول

هذا المطلب . وترفض القوى الأوربية فى أغلب الحالات اعادة الاستقلال الى الشعوب الافريقية .

وقد صدق المستر بازل دافيدسون الكاتب والصحفى الانجليزى حين قال :

« يتحدث الكثيرون اليوم عن الحاجة الى تساهل الأوربيين ومجاملتهم اللذين يساعدان على الثقة فى القيادة الأوربية ولكن الافريقى لا يطلب التساهل ولا يحتاج الى كرم مجاملات الأوربيين فهو لا يطلب امتيازا . انه يطالب بحقوقه فقط . انه يسعى لاقامة المساواة بين كل الأفراد سود وسمر وبيض ولا يحتمل هذا المطلب المصالحة أو الحل الوسط ، فاما المساواة التامة واما سيادة شخص على آخر » .

الفصل السادس

الحكومات الافريقية

من الأسئلة التي تتردد كثيرا فى هذه الأيام : « هل كان الافريقيون يتمتعون بأية ديمقراطية قبل مجىء الرجل الأبيض الى افريقية ؟ ويعتقد كثير من الأوربيين والأمريكيين أن الأفريقيين لم يعرفوا الديمقراطية قبل مجىء الرجل الأبيض أو بمعنى آخر أن الرجل الأبيض هو الذى أدخل الديمقراطية الى افريقية . ولذلك نجد كثيرا من الأوربيين والأمريكيين يتساءلون لنفرض أن الافريقيين قد منحوا استقلالهم فهل سيستمر سير حكوماتهم على الأسس الديمقراطية ؟ هـل يستطيع الافريقيون فهـم الديمقراطية التى هى أساس حكومة الرجل الأبيض ، ان الديمقراطية كأى شىء آخر حسن فى هذه الدنيا تنسب فى نشأتها خطأ الى الرجل الأبيض . ولكن الحقائق التاريخية تثبت أن الديمقراطية ليست احتكارا للشعوب البيضاء . فلقد كان للأجناس الأخرى أيضا تنظيمات ديمقراطية قبل اتصالها بالعالم الغربى بمدة طويلة ولكننا سنقصر مناقشتنا هنا على القارة الافريقية التى كثيرا ما يشك فى أصالة الديمقراطية فيها .

ان الذين عاشوا فى افريقية يعرفون أن الشعوب الافريقية ديمقراطية الى درجة معطلة . فالامور لا يبت فيها ابدا الا بعد أن يكون كل فرد قد قال ما عنده . وتسمح المجالس الافريقية بالتعبير الحر عن كل وجهات النظر . ولكل فرد الحق فى ابداء الرأى فى المشكلات العامة . وحتى الرجـال المسئولون فانهم يستشيرون الشعب دائما . وتعنى عبارة Batini abantu?

(فى لغة النوبيلى فى روديسيا الجنوبية) « ماذا يقول الشعب ؟ » وتعنى nxa abantu bevuma Kulwngile « اذا وافق الشعب فكل شىء على ما يرام » . ان الشعب — عامة الشعب — هو مصدر كل سلطة بالرغم من أن كثيرا من المراقبين الأوربيين والأمريكيين يدعون أن رؤساء القبائل هم أساس السلطة فى افريقية . ان مشكلة التنظيمات الافريقية الحقيقية هى الديمقراطية المفرطة الى حد الخطأ . وقد كان ذلك أحد أسباب تأخرها اذ كان تنفيذ أى مشروع يستلزم موافقة كل أفراد العشيرة أو القبيلة .

ونحن وان كنا نعرف أن كثيرا من لغات البانتو لا تحتوى على كلمة مرادفة للديمقراطية الا أن عدم وجود كلمة تعبر عن الديمقراطية يجب ألا يؤخذ دليلا على عدم جود الروح الديمقراطية بين الشعوب الافريقية . تماما كما يجب ألا يؤخذ عدم وجود كلمة انجلوسكسونية أصيلة تعبر عن الديمقراطية دليلا على عدم وجود الديمقراطية بين الشعوب الانجلوسكسونية. ان تشابه كلمات الديمقراطية فى اللغة الاسبانية Democracia والفرنسية Démocratie والهولندية Demokrati والألمانية Democracia والبرتغالية والأفريكانية Demokrsie لأكبر دليل على عدم وجود كلمة أصيلة للديمقراطية فى هذه اللغات . ان كلمة ديمقراطية مشتقة من كلمة Demokratia اليونانية Demos أى الشعب ، و Kraiten بمعنى يحكم) . ولكن هذا لا يعنى أن الشعوب الأخرى لم تعرف الديمقراطية . ولكنه يعنى أن هذه الشعوب قد استعارت الكلمة اليونانية لتعبر عن فكرة موجودة أصلا . فالنديبلى فى روديسيا الجنوبية يحبون Ukuzibusa (أى الحكم الذاتى) كذلك فان الشونا فى نفس البلد يحبون « تقرير المصير Kuzwitonga » ونود الآن أن تتبع الديمقراطية الافريقية فى المنظمات الشعبية القائمة فعلا ، وسيكون ذلك

عن طريق بحث قصير فى نظم الافريقيين القضائية . ثم ننتقل الى منظماتهم السياسية .

من الصعوبات التى تواجه الغربيين فى محاولاتهم لفهم العادات والقوانين الافريقية عدم وجود تراث افريقى مكتوب يمتد عبر القرون كما هو الحال فى التراث الأوربى الذى يمكن تتبعه الى سنى ما قبل الميلاد . وبسبب عدم وجود هذا التراث يعتقد كثير من الغربيين خطأ أن القبائل الافريقية لم تعرف أى نظام قضائى ويدافعون عن رأيهم بعدم وجود سجلات مكتوبة فى المحاكم الافريقية . وهذا حقيقى ولكنه لا يعنى أنه لم يكن للافريقيين نظام قضائى معروف . فبينما يعتمد الأوربيون فى تسجيلهم للأحداث على الحبر والورق يعتمد الافريقيون الأميون على ذاكرتهم ، ان قوانينهم تعيش حية فى أذهانهم . بيد أن ذلك لا يعنى أن هذه وسيلة أفضل لتسجيل الأحداث فمن المؤكد أن طريقة الأوربيين فى التسجيل أفضل بكثير من طريقة القبائل الافريقية . ولكن الذى نريد توضيحه هنا هو أن معظم النظم القانونية الافريقية التى درسناها تبين ان القضاء الافريقى كان فى كثير من الأحيان متقدما جدا . وتؤيد هذه الحقيقة كثير من الدراسات الانثربولوجية التى قام بها العلماء الأوربيون والأمريكيون . كما أن ملاحظاتنا الشخصية على تطبيق القوانين المحلية تثبت لنا مدى تقدم النظم القانونية الافريقية قبل مجيىء الرجل الأبيض الى افريقية بزمن طويل . وقد ظهرت مقالة شيقة بقلم س . ف . نادل تحت عنوان « المعقولية واللامعقولية فى القوانين الافريقية » . نقتطف منها ما يلى :

« مع أن قبائل اللوزى فى روديسيا الجنوبية ما زالت بغير قانون مكتوب الا أنها لها مجالس تشريع ومجالس تقوم بدور المحاكم واجراءات قانونية معقدة . بل وفلسفة قانونية كاملة ...

« ان قانون اللوزى الذى لا تفسده بسائط الأدلة أو الخرافات أو هوى من أى نوع ، يعتمد على طريقة واضحة فى التحقيق ومنطق قضائى سليم » .

ولقد وجدنا فى معظم النظم القانونية التى درسناها والتى رأيناها تطبق ، أن هناك كثيرا من القوانين الواضحة تحدد العلاقات الشخصية بين الأفراد . والزوج والأسرة . والغرباء . والعلاقات القبلية ، والملكية والمجتمع عامة وتوجد بالجامعات الافريقية دراسات خاصة للقوانين المحلية . وقد اعترف المحلفون البريطانيون الذين تناقشنا معهم فى أوجه التشابه والخلاف بين القانون الانجليزى وقانون النديبل . بأنه بينما يفوق القانون الانجليزى قانون النديبلى فى بعض النواحى الا أن تجاربهم الشخصية فى المحاكم الوطنية فى روديسيا الجنوبية قد اقنعتهم بما لا يدع مجالا للشك بأن القانون الانجليزى قاصر عن قانون النديبلى فى بعض النواحى الأخرى .

وعند قبائل الشونا فى روديسيا الجنوبية قد يحكم رئيس العائلة فى قضاياها ويستطيع الفرد أن يرفع شكواه الى رئيس عائلته ومن بعده الى رئيس القبيلة ولا يحكم رؤساء العائلات أو القرى أو القبائل الا فى نوع معين من القضايا فمثلا الجرائم الخطيرة كالقتل لا ينظر فيها رئيس العائلة أو رئيس الخط بل هى من اختصاص شيخ القبيلة وحده . وتنظر القضية أمام أى من هذه المحاكم الثلاث حسب درجة خطورتها . وهذا مبدأ عام يوجد فى معظم النظم القضائية الافريقية . وتستعمل قبيلة الشونا كلمة Dare بمعنى مجلس . ويستعمل النديبلى فى روديسيا كلمة bandla ويستعمل الزولو فى ناتال والزوكسا فى ولاية الكاب والتسوانا فى بتشوانالاند كلمات ibandla, ibunga, Kgota! على التوالى لنفس المعنى .

وقد سبق وجود هذا المجلس مجيء الأوربيين الى افريقية . فأصله وتكوينه واجراءاته كلها افريقية بحتة .

وفى المجلس الذى كان يعقد عادة فى الهـواء الطلق ينظر الرئيس أو مندوبه مع أعيان المنطقة القضية (moswa) ويسمح لأى رجل بلغ سن الرشد بحضور الجلسة والاستماع الى ما يجرى فيها . وكان المدعى والمدعى عليه يحضران الجلسة مع أقاربهم وأصدقائهم ويستطيع أى شخص آخر لا مصلحة له فى الموضوع من غير النساء والأطفال حضور الجلسة ليسمع ويتبصر والرجال ينظرون القضية . وكانت الجلسة تبدأ بأن يسرد المدعى أسباب اختلافه مع المدعى عليه ثم يتحدث المتهم مدافعا عن نفسه ويتكلم كل منهما دون مقاطعة . وبعد أن يتكلم الطرفان يقول الشهود كل ما يعرفونه عن القضية . ويلى ذلك استجواب طويل يشترك فيه كل من يريد من أعضاء المحكمة ، على أن يلاحظ دائما عدم الضغط عـلى المتهم . وحينما يكون واضحا أن المتهم لم يحسن التعبير عن نفسه تقوم المحكمة بتفسير أقواله وبموافقته . وكان سماع القضية يستغرق أحيانا نصف يوم أو يوما بأكمله أو عدة أيام بحسب طبيعة القضية . وفى النهاية يلخص الرئيس أو من ينوب عنه القضية كلها على ضوء ما قاله المتقاضيان ثم يدلى فى الختـام بحكـمه أمـام النـاس : Wadyiwa ne moswa (أى لقد أكلتك القضية بمعنى لقد وجدت مذنبا) .

ولم يكن هنـاك محامون فقد كان القـانون بسيطا وكذلك كانت الاجراءات بسيطة ولكنها فعالة . وكانت ساحة القضاء مفتوحة للفقراء والأغنياء على السواء . وكان وجود أقارب كلا الطرفين وأصدقائهما يكفل العدالة الحقيقية . ولكننا لا ندعى أن أخطاء العدالة لم تكن معروفة فى

المحاكم الوطنية . لقد كانت هذه الاجراءات وما تزال شائعة لدى كثير من القبائل الافريقية .

وافتتاح الابندلا ibandla أى مجلس النوبيلى أمر طريف للغاية . يقوم عضو بارز من المجلس يختاره زملاؤه ويطلب من المتجمعين فى الهواء الطلق السكون بهذه الطريقة (اسكتوا أيها الناس . اننا الآن نبدأ العمل . اجلسوا جميعا واسكتوا سكوتا تاما . سنبدأ الاستماع الى القضية . اننا لا نحكم على الفرد بل على القضية . ولا رابطة بين الشخص والقضية) .

وتسود الجدية جو محكمة النديبلى من البداية الى النهاية . وأى اظهار لعدم احترام المحكمة قد يؤدى الى حكم بالغرامة بتهمة عدم احترام الابندلا . وبالرغم من أن النديبلى يحبون الفكاهة الا أنهم يحرصون على ألا تدخل المحكمة وكل من يفعل ذلك يعرض نفسه للعقاب . لذلك فقد ينظر النديبلى فى قضية ذات جوانب فكهة متعددة دون أن ترتسم على شفاههم مجرد الابتسامة الخفيفة . ثم يضحكون من كل قلوبهم بعد عودتهم الى قراهم بعد انتهاء القضية . ذلك أن القضية عند النديبلى أمر هـام فأنت فيها تقلق حياة انسان . ومن ثم تفسر الفكاهة فى مثل هذه الظروف بأنها خفة عقل ؛ وخفة العقل فى تناول حياة انسان آخر هى كما لو كنت تعامله ككلب .

وتبدأ المحاكمة بين شعوب اليوريا فى نيجيريا بطريقة مماثلة لطريقة النديبلى فى روديسيا .

« تأدبوا ، اسكتوا ، اخرسوا وليخفض من يسعل منكم سـعاله ولتمنع النسوة أطفالهن من البكاء ، وليقفل كل منكم فمه ؛ فقد انقطع الحبل الذى يربط الانسانية . ويحاول كبار الرجال الآن اصلاحه . واذا قاطعهم أحدكم فى عملهم الاصلاحى هذا ، فانه يعرض نفسه للعقاب » .

ويذكر كاتب النبذة السابقة أن أى شخص يضايق المحكمة يعتبر محقرا لها . وقد يعاقب بالغرامة أو بعقوبة أخرى . كالجلد أو السجن . وتعرف أغلب المحاكم الافريقية بجدية اجراءاتها وبأن الذى يصدر الحكم فيها مجموعة من الناس وليس فردا واحدا . وكل المحاكم الوطنية لا تستمد سلطتها من الرئيس أو من الأعيان بل من الشعب — عامة الشعب — لذلك كان لزاما أن يرضى قرار المحكمة الشعور العام والعرف السائد بين الناس . والا قامت أعمال العنف اذ يعتقد الشعب من أن كبار رجاله انما كانوا يتلاعبون بتقاليده لارضاء نزعاتهم الخاصة ، وهؤلاء الرجال هم أنفسهم الذين يدفعون الثمن اذا ما قامت هذه الأعمال العنيفة . فالرجل الذى يساند الحق يعد بطلا فى نظر كثير من الافريقيين ، وتعتبر قبيلة الشــونا فى روديســيا نصــير العدالة الهــا mwari ، ويعتبره النديبلى ملكا inkosi .

ويظهر البرت شفيتزر فهما طيبا لموقف الافريقيين الخلقى حينما يقول « ان الزنجى ليس فى مركز يؤهله لكى يعد انتصار الفرد على الطبيعة دليلا على تفوقه العقلى والروحى . ولكن لديه احساسا لا يمكن أن يخونه فى أمر واحد ، هو ما اذا كان لأى رجل أبيض شخصية أخلاقية حقيقية أو لا . فاذا ما أحس بأن له هذه الشخصية كانت السلطة الخلفية ممكنة . واذا لم يحس ذلك يصبح خلق هذه السلطة مستحيلا . فالزنجى ابن الطبيعة الذى لم تحوله الحضارة عن فطرته ولم تفسده كما أفسدتنا . له معاييره الأدبية فى الحكم على الأشياء . وهو يحكم علينا بأبسط هــذه المعايير الا وهو المعيار الأخلاقى . انه يكبر سيده ويحترمه اذا ما وجد فيه خيرا وعدلا وعدم تصنع فى الطباع ، ووجد له قيمة ذاتية وكبرياء حقيقية من وراء تلك الكبرياء الظاهرية التى تخلقها الظروف الاجتماعية . فاذا لم يجد

فيه هذه الصفات ظل متمردا رغم كل مظاهر الاستسلام التى قد يبديها » .

وقد أبدى كثير من الأوربيين — كان لهم اتصال مباشر بالافريقيين — نفس هذه الملاحظة ، وفى نشرة بعنوان « أنت وخادمك » توزع على المهاجرين الى اتحاد روديسيا ونياسلاند تذكر ادارة العلاقات العامة بين ما تذكره هذا التحذير : « ان أهم شىء يجب عليك القيام به هو أن تحسن معاملة الافريقى فهو بطبيعته يحب الاحترام والعدالة » .

يتضح مما ذكرنا أن الشعوب الافريقية كان لها نظامها القضائى الخاص قبل مجىء الرجل الأبيض بزمن طويل . ولم تدخل مفاهيم العدالة ونظمها وتطبيقها الى افريقية على يد الأوربيين . فقد ولدت مع الافريقى يوم ولد على أرض افريقية . وليس من صالح الأوربيين فى شىء أن يتمسكوا بخرافة أن الافريقى ليس لديه أى احساس بالعدالة . وأنه اذا منح حريته فسيسود الظلم كل أنحاء افريقية .

والسؤال الآخر الذى نود الاجابة عليه هو « هل وجدت الديمقراطية الافريقية قبل مجىء الرجل الأبيض ؟ وهذا سؤال هام فان كثيرا من الغربيين يتساءلون « هل يؤتمن الافريقى على الديمقراطية اذا ما منح حريته واستقلاله ؟ وهل يعرف الديمقراطية بالمفهوم الغربى ؟ » .

من العقم محاولة الاجابة على السؤال الأخير ما دامت أنماط الديمقراطية تتباين حتى فى الديمقراطيات الغربية ذاتها . ففى بريطانيا مثلا ينتخب أعضاء البرلمان لمدة لا تزيد على خمس سنوات وفى الولايات المتحدة الأمريكية ينتخب النواب لمدة سنتين . وينتخب أعضاء مجلس الشيوخ لمدة ست سنوات بينما يكون انتخاب الرئيس لمدة أربعة سنوات . وقد اعترف المراقبون البريطانيون عدة مرات بعدم فهمهم للسياسة الأمريكية وهو نفس ما يقوله المراقبون الأمريكيون بالنسبة للسياسة البريطانية .

ويعجب العالم كله من السياسة الفرنسية التى تبدو غير مستقرة . وكثيرا ما ترتبط الديمقــراطية البريطانية بالاشـــتراكية والديمقراطية الأمريكية بالرأسمالية . وعلى رأس النظام الديمقراطى البريطانى ملك دستورى بينما يقوم على رأس الديمقراطية الأمريكية رئيس جمهورية . ولكن برغم هذه الاختلافات السطحية فان الديموقراطية فى كل هذه الدول تعنى شيئا مشتركا هو أن الشعب مصــدر سلطة الحكومة . ومن حق الشعب أن يصنع الملوك والرؤســاء أو يعزلهم ؛ وأن ينتخب أعضاء الهيئة التشريعية أو يسحب ثقته منهم . وباختصار فان الديمقراطية هى ارادة الشعب ويحكم الذين يحكمون بمحض موافقة المحــكومين . فالديمقراطية الحقة اذن لا تستلزم نفس المظاهر أو الأنظمة ولكنها تستلزم نفس « الروح » ألا وهى ارادة الأغلبية ، فالديمقراطية فى الواقع هى صوت الأغلبية فى أى بلد سواء أكان فى أوربا أم آسيا أم أمريكا أم افريقية .

وتتركز السياسة الافريقية حول الملك أو الرئيس بحسب كل قبيلة . ولكن من الذى ينتخب الرئيس الافريقى ويعطيه الســلطة ، أو وســيلة الانتخاب أو التعيين . سنوضح للقارىء ما اذا كانت الرئاسة أو الملكية فى افريقية دكتاتورية أو ديمقراطية ؛ ففى ساحل الذهب (غانا الآن) نجد أن القــانون الذى كان يعين الرئيس بموجبه والقانون الذى كان يعزل وفقا له لا يستلزمان مزيدا من الايضاح ، فسلطة انتخاب الرئيس فى يد الشعب — عامة الشعب ، وبما أن الشعب هو المسئول عن انتخاب الرئيس فان من حقه أيضا أن يعزله اذا ما أساء استعمال السلطة التى منحها له الشعب . وعند تكريسه يطلب من القائم على عملية التكريس أن يحمل الى الرئيس الجديد رغبات الشعب فيقول :

لا نريد جشعا .

لا نريده أن يلعننا .
لا نريده أن يصم سمعه .
لا نريده أن يتهم الشعب بالحماقة .
لا نريده أن يتصرف بوازع من ارادته الشخصية .
لا نريد أن تبرم الأمور هنا كما تبرم فى كوماسى .
لا نريد أبدا أن يقول « ليس لدى الوقت — ليس لدى الوقت » .
لا نريد تعسفا شخصيا .

ومن الواضح أن الشعب كان يحاول حماية نفسه من الطغيان الذى لا يؤدى الا الى استبداد الرئيس بهم . كان الناس يتطلبون من الرئيس أن يستمع لصوتهم وأن يعمل طبقا لارادتهم هم لا ارادته هو ، وكان على الرئيس أن يحترم رغبات شعبه . غير أن الطبيعة البشرية كانت أحيانا تغلب الرئيس علـى أمره ، فيتجاهل رغبات الشعب . ولكن الشعب لم يكن مسلوب الارادة . فالذين انتخبوا الرئيس كانت لهم سلطة عزله وتعيين غيره بنفس الشروط وهى احترام رغبات الشعب . ويعلق « راترای » على ذلك .

« اذا تصرف الرئيس بعد انتخابه بطريقة غير لائقة نبهه الشيوخ فى السر الى أن تصرفاته تضايق الشعب . وتعرض مركـزه للانهيـار . والتصرفات التى يعترض عليها عادة بهذه الطريقة هى الاسراف فى الشراب ومطاردة زوجات الآخرين والقسوة فى معاملة الرعية . وتجاهل نصائح الشيوخ أو أن يستبد به الغضب فيجلد الشبان . ويستمع الشـيوخ المسنون الى الشكاوى الفردية ضد الرئيس على انفراد . ثم يطلبون من الرئيس أن يصالح الشاكى .

ومن الواضح أن الرئيس انما يعتمد فى أداء مهمته على شيوخ القبيلة

الذين يستمدون سلطتهم بدورهم من الشعب . أو بمعنى آخر فان من صالح الرئيس أن يكون محبوبا من الشعب قدر الامكان . وهـذه هى روح الحكومة الشعبية . والخلاصة أن الرئيس انما يستمد سلطته من الشعب ومن ثم فلا عجب أن يخلص راترى الى أن الدستور عند الأشانتى فى تطبيقه الصحيح « ديموقراطى الى حد ما » .

وتمدنا قبيلة اليوربا فى نيجيريا بمثل صالح للملكية الافريقية . فقد كان الملك هو الحاكم الأعلى ويخضع الرؤساء له وغيرهم من الأعيـان ولكنه يحكم بواسطتهم . ومستشارو الملك مسئولون عن الأجزاء المختلفة من البلاد . وينتمى الملك بالطبع الى الأسرة المالكة وله سلطات واسـعة منحته اياها عادات البلاد وقوانينها . الا أنه لم يكن مستبدا بأى حال فقد راعى الشعب ألا يكون تحت رحمة الملك ، فالملك من حقه مثلا أن يعلن الحرب ولكن اذا فشلت حملاته الحربية كان عليه بحسب قوانين البلاد أن يموت قبل عودة جيشه المهزوم الى أرض الوطن . فاذا لم يقم بقتل نفسه نفذ الشعب قوانين البلاد بقتل الملك . ومن ثم كان حق اعلان الحرب على أى قبيلة أخرى مسئولية ضخمة فاعلان الحرب يعنى اما النصر واما الموت للملك .

بيد أنه من الناحية الأخرى اذا فقد الملك أو الرئيس أو أحد النبلاء شعبيته ، كما يحدث مثلا عندما يضيق الشعب بالوسائل الاستبدادية التى يستخدمها أحدهم ، فان الشعب يلجأ الى عادة الكيريكرى حيث تتظاهر مجموعة من الناس فى الريف أو المدينة وتغنى أغانى قادحة وتردد بصوت عال شتائمها الموجهة الى الملك أو الشخص الذى يكرهونه ،فاذا ما وصلوا الى مقر اقامته قذفوا مقره أو منزله بالرمل والطوب دلالة على أن الشعب لم يعد يرغب فى بقائه . وكان هذا التظاهر يحدث عادة فى الليل ويستمر

ثلاثة أشهر . وأثناء هذه المدة كان على الشخص المقصود أن يرضى رغبات الشعب أو يترك البلاد أو يتنحى ، فاذا تجاهل الكيريكيرى أو استخف بها ، فوضت جمــاعة من الرجال الأشداء المقنعين فى اختطاف الشخص بالليل وقتله .

ومما لا شك فيه أن ذلك يبدو بدائيا بالنسبة للقرن العشرين ولكن شيئا واحدا يظل واضحا هو أن الملك أو الرئيس فى قبائل اليوربا كما فى غيرها من القبائل الافريقية لم يكن فوق القــانون . بل كان خاضــعا للقانون ، وكان الشعب الذى كان عليه أن يتمتع برضاه هو مصدر كل سلطاته .

وسنتحدث الآن عن المثل الأخــير للملكية افريقية . لقد كان الملك لوبنجولا ملك النديبلى فى روديسيا الجنوبية كثيرا ما يلقب « بالمستبد الأسود » وهو لقب ليس فيه تجنى ، فالنديبلى شعب محارب يعيش فى ظل نظام عسكرى صارم . ومع ذلك فحتى فى ظل هذا النظام كانت سلطة الملك مستمدة من الشعب . ولم يكن فوق القانون بل كان خاضعا له ، وان يكن قد قام بعدة محاولات فاشلة ليجعل الشعب ينصاع لرغباته . فمن ذلك أنه أصدر ذات مرة أمرا بقتل امرأة معينة وأرسل رجلين لتنفيذ الأمر الملكى . وحين وصل الرجلان بعد أربعة أيام من الســير الشاق المتواصل الى المنطقة العسكرية التى تقيم بها المرأة وجدا طفلها مربوطا الى ظهرها فطلبا منها أن تفك رباطه ، ولكنها رفضت وقالت اذا كان عليهما أن يقتلاها فليقتلا طفلها معها ، وفعل الرجلان ذلك وعادا الى المقر الملكى حيث تقوم الآن مدينة بولاديو الحديثة .

وحين سمع رجال هذه المنطقة العسكرية بما حدث لبسوا ثياب الحرب وحملوا دروعهم ورماحهم وتوجهوا نحو المقر الملكى وطالبوا الملك بتبرير

قتله للطفل . واغتاظ الملك من هذا التصرف وطلب من رجاله أن يستعدوا للمعركة ولكنه عجب حين طالبوه هم أيضا بذكر السبب الذى دعاه لقتل الطفل . فقال : « لم آمر بقتل الطفل ولكنى أمرت فقط بقتل المرأة » . وتصايح الجانبان ملوحين برماحهم المشرعة موافقين ومطالبين بقتل الرجلان . وكان الملك يحب هذين الرجلين فتردد فى تسليمهما ولكن الجيشان تصايحا برغباتهما وأخيرا اضطر الى تسليم الرجلين ليتجرعا ما تجرعه الطفل . واستقرت العدالة وعاد الرجال الى ديارهم مؤكدين بذلك أن الملك ليس فوق رغبات الشعب .

وكان للملك لوينجولا مستشار سياسى يدعى لوتش كهلابانجاتا استطاع أن يقدر قوة البريطانيين العسكرية ونصحه بعدم مهاجمة المستوطنين البريطانيين فى بلاده . ولما كان الملك ذا بصيرة نفاذة فقد وافق لوتسى ودارت المناقشة فى مجلس الحرب حول هل يهاجم الغزاة البيض أو لا . وعارض الملك ولوتسن مهاجمة الغزاة البيض وأصبح الشعب مقتنعا بأن لوتسن خائن لبلاده وحكم عليه بالموت وأرغم الملك على اعلان الحرب وهكذا نشبت فى سنة ١٨٩٣ حرب المتابيلى المشهورة ضد القوات البريطانية . رغم رغبة الملك وارادته مثبتة بذلك مرة أخرى أن الملك ليس له صوت خاص وأن صوته الحقيقى الوحيد هو صوت الشعب ومن مأثورات النديبلى ما معناه « ان الملك هو الشعب واحترامك الملك احترام لنفسك . ومن يهين ملكنا فهو يهيننا . ومن يمدح ملكنا فهو يمدحنا فالملك هو نحن » .

وحينما يموت ملك النديبلى فانهم يقولون intaba idilikile أى « لقد انهار الجبل » . فالملك هو الجبل الضخم الذى ترتكز عليه عادات الشعب وقوانينه وتاريخه وسلامته وآماله أو بمعنى آخر أن الملك

كان ملكا لأنه تجسيد واضح لشعبه . فاذا فشل الملك فى ذلك تخلى الشعب عنه . والتاريخ الافريقى ملىء بمثل هذه الصورة فالملك لكى يصبح ملكا لابد أن يبايعه شعبه . وحينما أصبح الملك شاكا ملك الزولو غير مقبول لدى الكثير من شعبه تركه الناس وذهبوا لخدمة ملوك آخرين مقبولين لديهم . وحينما أصبح غير مقبول بالمرة اعتاله الشعب ليرضى ضميره وذلك أساس كل التنظيمات السياسية الافريقية هو مبدأ الحكومة الشعبية وأن التاريخ الخاطىء والمدنية الزائفة هما اللذان يدعيان أن الافريقى لم يعرف الديمقراطية قط قبل مجىء الرجل الأبيض الى افريقية .

يظهر من مناقشتنا السابقة أن الملك الافريقى يدين بسلطانه الى الشعب كذلك يدين الرئيس الافريقى ومستشاريه بسلطانهم الى الشعب . وفكرة المملكة الدستورية والرئيس الدستورى فكرة افريقية ١٠٠٪ وان كانت غير مقصورة على الافريقيين . وفكرة الحكومة الشعبية افريقية كما هى أمريكية أو أوربية . ويمكن ملاحظة نظام الحكومة الشعبية حتى فى الوحدات الصغيرة كالقرية مثلا . وللفرد الحرية الكاملة فى الانتقال الى قرية أخرى اذا لم يكن راضيا عن رئيس قريته ومن ثم كان رئيس القرية الأكثر سكانا محسودا من زملائه رؤساء القرى القليلة السكان . وتتركز سياسة القرية حول مفهوم الحكومية الشعبية . وبالمثل يتمتع الرئيس الذى تخضع له قرى عديدة بمكانة سياسية واجتماعية ولكى يحصل الرئيس على هذه الشعبية عليه أولا أن يحظى بالتأييد من قومه لأنه اذا لم يكن مؤيدا منهم تخلى عنه الكثيرون الذين يتمتعون بحرية الاقامة حيث يودون بالهجرة . من حيث لا يرغبون فى الاقامة . ولم يفشل أى نظام افريقى فى أن يؤكد لنا أن السلطة فيه مصدرها الشعب ، لا أصحاب المناصب ، فاذا

كان أساس الديمقراطية هو ارادة الشعب intando yabantu فقد عرفتها اذن الشعوب الافريقية منذ فجر تاريخها .

ولكننا نود تتبع السؤال الى مدى أبعد من ذلك . هل أدخلت القوى الأوربية الديمقراطية الى افريقية ؟ . قد يربط المراقبون الغربيون بين وجود الرجل الأبيض فى افريقية وبين الديمقراطية . وقد يظن الأجانب عن القارة أن البيض فى افريقية يعلمون الافريقيين الأساليب الديمقراطية بوضع القواعد وضرب المثل . وهذا بعيد كل البعد عن الحقيقة فان ما يعلمون للافريقيين هو الدكتاتورية اذ أنهم لا يحكمون برأى الأغلبية بل وفقا لرغبات الأقلية . ومن ثم فان الديمقراطية الموجودة فى خيال الافريقيين ليست نتيجة اتصالهم بالديمقراطيات الغربية فقد اتصل الافريقى بالشعوب الأوربية على مستوى دكتاتورى لا على مستوى ديمقراطى وقد أملى الأوربى وما زال يملى رغباته على الافريقى . فلا صحة اذن لما يقال من أن الرجل الأبيض هو الذى أدخل الديمقراطية الى افريقية . وعلمها للافريقيين . وما نريد أن ننكره هنا بشدة هو القول الخطأ بأن الديمقراطية أدخلت الى افريقية على يد الأوربيين فهذا ليس صحيحا ؛ فالديمقراطية أصيلة فى افريقية أصالة الافريقى نفسه .

وعلى أية حال ما هى الديمقراطية ؟ أهى معقدة بالشكل الذى يحاولون اظهارها به ؟ أبدا .. ففى الأسرة يتفق الناس على التماسك سويا . وفى العشيرة يتفقون على مؤازرة بعضهم بعضا . وفى القبيلة يتفقون على مساندة بعضهم لبعض . وفى الأمة يتفقون على التضامن سويا . وحيث يتفق الناس على الترابط توجد الديمقراطية . أما أن يقال ان الديمقراطية لم توجد فى افريقية قط فليس ذلك الا طريقة أخرى للقول بأن الافريقيين

لم يستطيعوا الاتفاق قط على التضامن سويا بمحض ارادتهم ووجـود الأسر والقبائل والدول الافريقية دليل واضح على خطأ هذا القول . فحينما يتفق الناس عـلى التضامن فهذه هى الديمقراطية وحينما يرغبون عن التضامن فهذه هى الدكتاتورية . ولا تتطلب الديمقراطية قوة عسكرية أو تقـدما فنيا ، انها لا تستلزم سوى ارادة أغلبية الشعب . وليس فى الديمقراطية أى شىء خارق أو سحرى فهى طبيعية بالنسبة للرجل العادى كرغبتنا جميعا فى الشعور بالأمن .

لقد رأينا أن الحـاكم الافريقى يستمد سلطته من الشعب نفسه . فالشعب هو الذى ينتخبه وهو الذى يعزله من منصبه ، اذا لم يرض عنه فى حين أن القوى الأوربية فى افريقية هى نفسها القانون ، فقد اتخذت بنفسها لنفسها مراكز السلطة . وليست الحـكومات الأوربية مسئولة الا أمـام الأقلية الأوربية وليس أمـام الأغلبية الافريقية . ولا يستطيع الافريقى عزل الأوربيين من أى منصب أو حرمانهم من أى سلطة . وحين يتصل الأمر بالافريقى يصبح الأوربى فوق القانون .

ولكن قد يعترض على ذلك بأن الحكم الأوربى فى افريقية قد استغل السلطات الوطنيـة ومكن الافريقيين بذلك من أن يستمروا فى حيـاتهم الديمقراطية التى عهدوها قبل مجىء الرجل الأبيض . ولكن هناك فرقا واحدا كبيرا ، هو أن الملوك والرؤساء والسلطات الوطنية الأخرى كانت قبل مجىء الرجل الأبيض مسئولة كل المسئولية أمام الشعب لا أمام قوى أجنبية كما هى الحال الآن . ولم يعد الرؤساء الافريقيون الحاليون يمثلون ارادة الشعب بل ارادة القوى الأجنبية أو بعبارة أخرى فانه بينما احتفظت القوى الأجنبية بمظهر الملكية والرئاسة . فقد سلبت هذا المظهر معنـاه

الحقيقى ولم تعد سلطتهم الفعلية تمنح من الشعب بل من القوى الأوربية .
ومن ثم فان القومية الافريقية من وجهة النظر هذه تقف عقبة فى طريق الدكتاتورية الأوربية وتدافع عن الديمقراطية التى كانت الشعوب الافريقية تتمتع بها من قبـــل . ان الافريقيين يريدون تقرير المصـــير Kuzwitonga وحق الحكم الذاتى ukuzibusa كما اعتادوا من قبل .

الفصل السابع

مفاهيم الأوربيين الخاطئة

تضمن الكثير من الكتب التى كتبها الأوربيون والأمريكيون عن أفريقية ، عن قصد أو غير قصد ، تشويها للصورة الحقيقية للأوضاع فى أفريقية . وقد استنتج بعض هؤلاء الكتاب نتائج مبتسرة ظاهرة الخطأ مغرقة فى التضليل ومن الضرورى أن نصحح بعض هذه الأقوال الجارية حتى يحصل القارىء على صورة أصدق . وقد اخترنا لهذا الغرض كتاب ستوارت كلويت المسمى « المارد الافريقى » لأننا نعتقد أنه يمثل النظرة النمطية لكثير من الأوربيين .

يبدأ كلويت فى « المارد الافريقى » بحث ما اذا كان الافريقى مستعدا للحكم الذاتى وينتهى الى أنه غير مستعد له . ولكنه لكى يصل الى ذلك يرسم صورة وفق مزاجه ثم يقول هذا هو الافريقى . ففى حديثه عن روديسيا مثلا يقول : أين يستطيع الافريقيون الذهاب هنا ؟ والى أى مدى ؟ ان السماء هى آخر ما يمكن الوصول اليه اذا كان عندهم عقل أو كيان » .

ان كلويت ينسى أنه مع وجود الافريقى فى روديسيا وفى أى مكان آخر يسود فيه مبدأ سيطرة البيض قد نظمت الامور بحيث يظل الأوربى والافريقى فى الحضيض ، فالاجور والمرتبات قد حددت بحيث يحصل الأوربيون لقيامهم بنفس العمل ولهم نفس المؤهلات والكفاءة على الأجر الأكبر ويحصل الافريقيون على الحد الأدنى . والوظائف القيادية مقصورة

على الأوربيين . ويعانى الافريقيون فى الفنادق والحدائق العامة والسكك الحديدية والحافلات سواء كانوا متحضرين أو غير متحضرين ، متعلمين أو غير متعلمين منتهى الاذلال من التفرقة العنصرية . وبينما يستطيع الأبيض أن يكون مؤهلا سياسيا فى روديسيا الجنوبية الا أن بناء البلاد الاقتصادى يجعل من الصعب جدا على الافريقى أن يصبح مؤهلا اقتصاديا ومن ثم فمن الأصوب أن نقول ان حدود الافريقى فى روديسيا هى السقف الذى أنشأته مطالب سيادة البيض .

ويسترسل كلويت فيقول « لقد علمت أن لدى المتابيلى أربعين اسما للماشية حتى أن كل اختلاف بسيط فيها له ما يجزه . ولا توجد كلمة « أشكرك » اذ ليس لدى الشعب المفهوم الذى يقتضى استعمالها . وتقديم الخدمة الى القريب أو ابن العشيرة أمر مفروض عند الافريقى ، والطعام لا يمكن رفضه ومن ثم فليس هناك داع لشكر من يقدمه لأنه هو الأخير سيحظى بنفس هذه الضيافة اذا مر بقرية أخرى ، أما الغريب فلا تسدى له خدمة دون ثمن » .

ان هذا الصنف من المتابيلى ابتكره كلويت مخالف لندبيلى روديسيا المتابيلى الذين ولدت وربيت فيهم وعشت بينهم أربعة وثلاثين عاما ، فالوالدان النديبليان يهتمان اهتماما خاصا بتدريب أطفالهما على قول أشكرك كلما أعطوا شيئا ما . وعندما تعطى الأم طفلها شيئا تسأله « ماذا تقول » ولا تعطيه هذا الشىء الا اذا قال « أشكرك » هذه هى الطريقة التى نشأت عليها ونشأت عليها زوجتى والتى نشأنا عليها أطفالنا . وكثيرا ما تقول الأم لطفلها « حينما أعطاك فلان هذا الشىء ماذا قلت له ؟ » . فاذا أجاب الطفل « قلت له شكرا » سرت الأم . أما اذا قال « لم أقل له شيئا » أرسلته الأم الى الشخص الذى أعطاه الهدية ليشكره .

وقول كلويت ان كلمة « أشكرك » لا وجــود لهــا تعبير خاطىء لا يستأهل منا أى تعليق . ولكننا لصالح القارىء سنذكر القائمة التالية والتى يمكن التأكد منها من أى متخصص فى اللغات الافريقية .

الانجليزية	Thank you
الندبيلى — روديسيا الجنوبية	ngiyabonga
الشونا — روديسيا الجنوبية	ndinotenda
اللوغندا — أوغندا	Webale
الهوسا — نيجيريا	godiya
التسوانا — بتشوانالاند	Keaitumela
السودو — باسرتولاند	en- ahe

وكان الأحرى بكلويت أن يترك انتربولوجية نديبلى للمتخصصين من الأوربيين والأمريكيين الذين درسوا الموضوع دراسة موضوعية . انه يعرف أن كل البشر عادة يقولون « أشكرك » ولكن يبغى اظهار الافريقى كما لو كان مختلفا تمام الاختلاف عن الأجناس الأخرى ليتمكن بعد ذلك أن يقول « ان الأفريقى غير مستعد بعد للحكم الذاتى » . وستزداد هذه النقطة وضوحا كلما زاد بحثنا لهذه « الكلويتات » .

وأخطأ كلويت كذلك فى قوله ان الطعام لا يمكن رفضه فمن الجائز قبول الطعام أو رفضه ولكن ذلك يتبع فى كلتا الحالتين بكلمة « شكرا » أما قوله « .. أما الغــريب فلا تسدى له خدمة أبدا دون ثمن » فليس الا تعبيرا خاطئا من ابتكاره فيه اجحاف بحضارة الشعوب الافريقية . فكرم الندبيلى يظهر فى أمثالهم التى يستطيع فهمها أى دارس لعادات الندبيلى ولغتهم .

١ — معدة الغريب صغيرة جدا .
٢ — البقرة العابرة لا تأتى على المرعى .
٣ — كلنا غرباء فليعامل بعضنا بعضا بالحسنى .
٤ — حسن معاملة الغريب ذخر للمرء نفسه فقد يصبح غريبا فى يوما ما .

ومن أمثال قبيلة الشونا المقيمة فى روديسيا الجنوبية « لن يبطل جوعى الشديد الا وصول ضعيف » وهذا يشير الى طريقة الشونا المعتادة فى تقديم الطعام للغرباء ببذخ .

والشونا والندبيلى يضفون على الغريب مركزا خاصا فيسميه الندبيلى Umuntu Kamlimu أى « رجل الله » ويدعوه الشونا munhu Wamwari وتعنى نفس الشىء تقريبا وهذا شبيه بقولنا : « بؤسا له الذى لا يحسن معاملة رجل الله » . وتعامل معظم القبائل الافريقية التى عرفناها الغرباء بنفس الطريقة . وتعطى قبائل اليوربا فى نيجيريا مثلا آخر طيبا فى هذه الناحية فيقول م . ك . اجيسيف .

« ان أصل العادة الوطنية هى أنه لا يجب أن يرحل غريب أو زائر صديق دون أن يقدم له بندق الكولا Kola nuts والمشروبات أو الطعام والمأوى دون مقابل . ويتناول الضيف والمضيف بندق الكولا والمشروبات سويا . ويعد من لا يكرم الضيف أو الغريب رجلا شريرا يلفظه المجتمع ولا يحترمه » .

ولقد كنت غريبا فى أجزاء عديدة من افريقية تمتعت فيها بحسن الضيافة ولكن هذا لا يعنى أن حسن الضيافة طابع افريقية وحدها بل هو أعم من ذلك . فقد سافرت فى ايطاليا والولايات المتحدة وشملتنى نفس هذه الضيافة . ذلك أن حسن الضيافة ليس مقصورا على جنس واحد كما يريدنا

كلويت أن نعتقد بل هو أمر عالمى . وقد أنعم الله على الافريقى بوافر من هذه الصفة الانسانية .

ويقول كلويت دون وجه حق « ولكن يجب ألا نخدع أنفسنا . فالرجل الأسود يكره الرجل الأبيض ، وهو يكرهه فوق كل اعتبار بسبب كونه أبيض لأن ذلك مالا يستطيع هو أن يكونه أبدا » .

وليس أبعد عن الحقيقة من ذلك شيء فالمجتمعات والأندية المتعددة الأجناس تزداد نشاطا فى كل افريقية ويتقبل الافريقى الرجل الأبيض على أسس انسانية بحته ولكن الرجل الأبيض هو الذى يرفض الافريقى فى معظم الأحوال . ومن الأسباب التى تدعو الرجل الأبيض الى الخوف من منح الافريقى استقلاله الكامل هو أن الافريقيين قد يستعملون ضد البيض الوسائل الكريهة التى رأوا البيض يستعملونها ضدهم . وما يكرهه الافريقى فى الرجل الأبيض هو ظلمه ووسائل التفرقة الاجتماعية الاقتصادية والسياسية والتعليمية التى تضع الافريقى فى المرتبة الثانية أو الثالثة بين المواطنين فى بلده الأصلى . ان الافريقى يكره فى الرجل الأبيض غروره وجنونه فى تحقيره فى مسقط رأسه . ان الرجل الأبيض يمتلك كل الأرض ويعطى الافريقى أسوأها . والرجل الأبيض يسيطر على الافريقى سياسيا ويستغله اقتصاديا . ويحقر من شأنه اجتماعيا . ان الافريقى يكره أن يبقى ١٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ افريقى تحت رحمة أقل من ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ أوربى . ان الافريقى يكره هذه الأشياء لا الرجل الأبيض نفسه .

وليس هناك وسيلة نعالج بها استنتاجات كلويت الخاطئة خير من أن نذكر أقواله نفسها ونعالج كل واحدة بدورها . فيقول كلويت « والافريقيون المتعلمون غير محبوبين وليسوا محل ثقة مواطنيهم » . وقبل أن ندحض هذا القول بالأدلة نود أن نبدى بعض ملاحظات على بعض

جوانب العقلية الافريقية التى لا تحيط بها النظرة السطحية . فهناك قدر كبير من الصحة فى قول كلويت اذ أن (بعض) الافريقيين المتعلمين غير مقبولين بالنسبة لبنى وطنهم ولكن غيرهم مقبولون فما سبب ذلك ؟ . ان الشعوب الافريقية كلها تتقبل أولئك الافريقيين المتعلمين الذين يساندون المصالح الافريقية ، ولا يتقبلون أولئك الذين يرعون المصالح الأوربية على حساب المصالح الافريقية . وهذا صحيح بالنسبة للبيض أيضـا ، فالافريقيون يتقبلون أى شعب أبيض يرى المصالح الحقة للافريقيين . ولكن معظمهم لا يتقبل ابدا البيض الذين يسعون لاستغلال الافريقيين . كذلك لا يثق الافريقيون فى الافريقى المتعلم الذى يظهر فى مظهر الزعيم ووراءه رجل أبيض يحركه . فهو مجرد دمية حسنة الشكل . انهم يريدون قائدا يستمد سلطانه منهم لا من مجموعة من الأفراد البيض . كذلك الرجل الأبيض الذى يستمد سلطته منهم يتمتع فى نفس الوقت بثقتهم . انها قصة المثل القديم « الامانة فى جواز المرور الى قلب كل انسان » فاذا كان الافريقى المتعلم مخادعا فانه يصبح غير محبوب وغير موثوق به وهـذا صحيح أيضا بالنسبة للرجل الأبيض المخادع . ان الافريقيين يحبون الزعماء الافريقيين المتعلمين ويثقون فيهم ، ولكنهم لا يثقون فى المهرجين أو الدمى التى تحركها الأيدى الأوربية .

ان رئيس وزراء غانا كوامى نكروما خير مثل للافريقى المتعلم الذى يحبه شعبه ويثق به . وقبل توليه منصب رئيس وزراء ما كان يعرف آنذاك بساحل الذهب اعتقلته السلطات البريطانية مع غيره من الافريقيين المتعلمين والمنتمين الى نفس الحزب السياسى متهمين بممارسة ما أسموه نشاطا سياسيا هداما . وحاولت السلطات البريطانية أن تخلع عليه صفة المجرم المشاغب الذى يجب الابتعاد عنه . وأجريت الانتخابات بينما كان هو

كرئيس لحزبه فى السجن . ومع ذلك فاز حزبه . وأصبح السجين بين يوم وليلة رئيسا للوزارة . وذلك لأن الشعوب الافريقية تمنح حبها وثقتهـا لأولئك الافريقيين المتعلمين الذين يساندون بحق المصالح الافريقية . وان قيام دولة غانا التى تتكون حكومتها من الافريقيين المتعلمين وحدهم الذين اختارهم الشعب لتثبت خطأ تأكيد كلويت ان الافريقيين المتعلمين لا يتمتعون بحب مواطنيهم وثقتهم . هذا وفى نيجيريا وضعت معظم السلطات السياسية فى أيدى الزعماء الافريقيين المتعلمين الذين اختارهم الشعب بنفسه . أما فى كينيا فان توم مبويا هو زعيم اتحاد نقابات العمال الافريقيين الذى لا ينازع كذلك فان السيد ولينجتون شيروا عضو برلمان نياسلاند أحد الزعمـاء الافريقيين المتازين الذين يتمتعون بحب شعب نياسلاند وثقته . ولا يستطيع الا الغافل عن الأحداث الافريقية الراهنة أن يخطىء فى معرفة ان الافريقيين المتعلمين عامة يتمتعون فى كل افريقية بحب شعوبهم وثقتها وان ظهـور القومية الافريقية التى يتزعمها الافريقيون المتعلمون والتى تستمد قوتها الحقيقية من الجمـاهير لدليل كاف على ان الافريقيين يحبـون المتعلمين ويثقون فيهم هذا ويزداد ارسال الآباء وأولياء الامور لاطفالهم الى المدارس. فحاجة افريقية للمتعلمين أكبر من مواردها منهم أو بمعنى آخر ان الافريقيين يقدرون المتعلمين منهم .

ويبذل كلويت كل ما فى وسعه لاظهار الافريقى بابشع ما يمكن فيقول « لقد تأثر الافريقى بالحياة المتوحشة المتحررة التى عاشها قرونا يحاول الحصول فيها على ما يريد حيثما يجده » .

ونحن لا ننكر ذلك فهو حقيقة مطلقة وليس لدينا ما نزيده عليهـا أو ننقصه منها . ولكن ما يهمنا هنا هو المغزى الذى يرمى اليه من وراء هذه العبارة . انه يريد أن يعطينا الفكرة الخاطئة بأن الافريقى وحده هو

الذى مر بهذه الظروف . ونستطيع ان نحور قوله ذلك بحيث يسرى على كل أجناس العالم سريانه على افريقية . « فالأوربى قد تأثر بحياة التنافس المتوحشة التى عاشـها قرونا يحاول الحصـول فيها على ما يريد حيث يجده » .

ان احتلال الأوربيين لآسيا وافريقية وأمريكا واستراليا والبلاد غير الأوربية لدليل تاريخى عظيم لا يحتمل الشك على أن الأوربى قد تأثر بحياة التنافس المتوحشة التى عاشها قرونا يحاول الحصول فيها على ما يريد حينما يجده . لقد قتل المستوطنون الأوربيون فى استراليا كثيرا من سكانها الأصليين كما قتل المسـتوطنون الأوربيون فى أمريكا كثيرا من الهنود ليفسحوا مكانا لأنفسـهم . وكان المسـتوطنون الهولنديون فى الكاب يقتنصون البوشمن كأنما يقتنصون الوحوش .

وفى أوربا نشبت الحرب الفرنسية الروسية المدمرة سنة ١٨٧٠ ولسنا فى حاجة لذكر عصر نابليون (١٧٩٩ — ١٨١٥) الذى ازهقت فيه مئات الآلاف من الأرواح نتيجة لرغبة الفرنسـيين فى الحصـول على كل ما يستطيعون الحصـول عليه . وفى الحرب العـالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) التى قتل فيها ٠٠٠ر٠٠٠ر١٤ رجل واصيب ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٨ رجل بعاهات مستديمة شاهد على حياة الرجل الأبيض التنافسية المتوحشـة . والحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥) مثل صالح أيضا فقد بلغ عدد ضحايا هذه الحرب ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٨ بجانب ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٠ من العجزة عجزا دائما والحرب الفرنسية الانجليزية فى الهنـد وأمريكا الشمالية وحرب الثورة الأمريكية سنة ١٧٧٦ والحرب الأمريكية الاسبانية فى سنة ١٨٤٦ وسلسلة الحروب الأخرى كلها أمثلة توضح كيف أن الاوربيين قد تأثروا بتلك القرون من الحياة التنافسية المتوحشة . ويؤيد حجتنا وجود مستعمرات

بريطانية وفرنسية وبرتغالية وبلجيكية واسبانية داخل افريقية وخارجها . فكل ما رغبوا فيه حصلوا عليه بصرف النظر عن الخسارة الفادحة فى الأرواح وبصرف النظر عن خسائر الأموال والممتلكات .

ولكى لا نبدو كما لو كنا نكيل جزافا تهمة المنافسة الأوربية الوحشية الصارخة تقتبس من قول احد كبار الكتاب الأوربيين وهو « ارنولد توينبى » اذ يقول :

« ان القضاء بالجملة على السكان الذين كانوا موجودين قبلا والذى ميز وسيلتنا الانجليزية فى مستعمراتنا فيما وراء البحار عن الوسائل الأخرى التى استخدمها معظم غرب أوربا فى مستعمراتها فيما وراء البحار فى العصور الحديثة هو نفس الوسيلة التى فرقت بين استيطان الانجليز لمقاطعات الامبراطورية الرومانية واستيطان الشعوب البربرية الأخرى ابان فترة الفراغ التى تلت سقوط الامبراطورية وانحلال المجتمع الهلليني » .

لقد نجح البريطانيون فى جزيرة طسمانيا فى القضاء على كل السكان الأثليين فى ثلاث وسبعين سنة . ويؤرخ « بروتر برى » فيقول :

« ان المستعمرين (البريطانيين) نظروا الى السكان الأصليين كجنس فاسد ، ليس أكثر آدمية من الوحوش يتعين القضاء عليهم كلية . وكان طريدو العدالة الهاربون الى الغابات والذين يعتمدون فى حياتهم على السطو أكثر قسوة فى معاملتهم للوطنيين . فقد كان هؤلاء الخارجون على القانون يقتنصون السود للمتعة ويسرقون زوجاتهم ويربطونهن بالسلاسل ويغتصبوهن ثم يقتلوهن فى النهاية . وقد اعتاد أحدهم ان يصطاد الوطنيين خصيصا لكى يطعم كلابه لحمهم » .

ومع أن السكان الأصليين يميلون بطبعهم للسلام والمودة مع البيض الا أنهم استثيروا لهذا العسف فكان رد فعلهم مماثلا » .

ولا نستطيع استثناء الأسبان والبرتغاليين من هذه القاعدة بالرغم من أنهم كانوا يضعون الدين فى مرتبة أعلى من مرتبة الجنس . ففى البرازيل مثلا نثر البرتغاليون فى قرى الهنود ملابس بعض ضحايا مرض الجدرى ولم يكن الهنود قد عرفوه قط . وسرعان ما اصيبوا به . ويقول توينبى .

« لم يمنع احساس الأسبان والبرتغاليين بوحدة الدين وبالاخوة من أن يحطموا منذ قرن ونصف قرن بقسوة وعن عمد ولمجرد الطمع فى الذهب (الغير موجود) والأرض (التى كانوا يعتبرونها غير قابلة للاستغلال) ذلك المجتمع الرائع الذى خلقته عبقرية ارساليات الجزويت بين شعوب براجواى البدائية » .

ومع ذلك فقد حرصنا على التزامنا للموضوعية وعلى ألا نعطى الفكرة الخاطئة . ان هذا الطبع القاسى مقصور على الشعوب الأوربية . فان الروس واليابانين والصينيين والهنود والافريقيين يشتركون فى هـذه الحياة التنافسية المتوحشة التى أثرت فى الجنس البشرى كله الذى ينتمى اليه كلويت قرونا طويلة ترجع الى ما قبل التاريخ . وكل ما نبغى ان نقوله هو ان كلويت قد أخطأ حين قصر صفة عالمية على الافريقيين وحدهم . وهو منطق خاطىء يذكرنا بمقال اوليفى جولد سميث عن « التحامل القومى » .

« من بين عديد الموضوعات انتهزنا الفرصة لنتحدث عن المميزات المختلفة لعدة شعوب أوربية ، لقد قام أحد السادة متباهيا متعاليا بقبعته مدعيا لنفسه هالة من الأهمية كما لو كانت كل صفات الأمة البريطانية مركزة فى شخصه . وقال ان الهولنديين مجموعة من البخلاء الصعاليك . وان الألمان مجانين سكارى شرهون نهمون . وان الأسبان متغطرسون ،

سريعو التأثر جبابرة قساة . أما الشجاعة والكرم والحلم وكل الفضائل الاخرى فان الانجليز يفوقون فيها العالم كله » .

ونستطيع الآن أن نصحح قول كلويت بأن نقول :

« الانسان (أوربى أو افريقى أو أسيوى) قد تأثر بحياة المنافسة المتوحشة التى عاشها قرونا يحاول الحصول على كل ما يريد اينما يجده » .

لقد قامت عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى لكى تحد من هذه الحياة التنافسية المتوحشة وبخاصة بين الدول المسماة بالدول العظمى المتحضرة . كذلك فان هيئة الأمم المتحدة التى نشأت بعد الحرب العالمية الثانية ان هى الا محاولة أخرى فى نفس الاتجاه ، ولن نطيل فى هذه النقطة أكثر من ذلك فاننا نريد أن نستكمل فحصنا « لكلويتات » أخرى .

يدعى كلويت أن القسوة لا تعنى شيئا بالنسبة للافريقى وان الحياة الانسانية ليس لها أية قيمة عنده وحياة الغريب بصفة خاصة . ولعل معرفتنا باللغة الافريقية تساعدنا على اثبات خطأ كلويت وتضع أمام القارىء القائمة التالية لعل فيها ما يفيده .

العربية	القسوة	الشفقة	الرحمة
الانجليزية	Cruelty	Kindness	mercy
الزولو	isihlaka	umusa	isihau
الشونا	hasha	mkowa	mkowa
السواحلية	ukatili	wema	rehema
اللوجندا	obukambwe	ekisa	okusasira
اليوربا	ika	iseun	anu
السوذو	Sehloho	mofuta	mohau
التسوانا	boramolano	bopelopomi	bopelotlhomogi
اللامبا	ulukansa	uluse	inkumbu
الهوسا	Kuttu	alheri	rahma
اللومونجو	Lilenga	liota	isei

ان القائمة اللغوية السابقة تثبت أن الافريقى لم يتعلم الرحمة والشفقة من الرجل الأبيض وتحضرنى هنا واقعة حدثت لى فى سنى دراستى فى روديسيا الجنوبية . كان أستاذنا البريطانى يهجو الافريقيين مستهزئا واتهمهم بالكسل والكذب والانحلال الخلقى والقسوة والحقد ومجموعة أخرى من الرذائل لا أذكرها الآن ، ولكى يقنع طلبته الافريقيين برذائل أهلهم كتبها على السبورة . وزاد عدد الصفات فى القائمة على ثلاثين ولكن طفلا فى الثانية عشرة من عمره لم يكن قد سافر أكثر من أربعين ميلا بعيدا عن قريته انفجر متضايقا وقال « سيدى ان ما تقوله ينطبق على شعبك أيضا فما دمت تستطيع أن تصف لنا شرورنا باللغة الانجليزية فان ذلك يعنى ان الشعب الانجليزى له نفس هذه الصفات » .

اننا لا ننكر قسوة الافريقى ولكنه ليس القاسى الوحيد لقد وزعت كل من القسوة والرحمة على الافريقيين كما وزعت على البيض وان خطأ كلويت هو اختصاصه للافريقيين بما هو حقيقة عالمية . فهو يتحدث عن القسوة كما لو كانت اختراعا افريقيا بحتا .

وتاريخ الكنائس يمدنا بأمثلة لا حصر لها عن قسوة شعوب أوربا ولكننا لا نريد بذلك أن نقصر هذه القسوة على الأوربيين . فنحن نستبعد ذلك وكل ما نريده هو أن تظهر ان القسوة ليست احتكارا افريقيا . لقد شهدت الثلاثة قرون الأولى لنشأة الكنيسة المسيحية قتل آلاف المسيحيين الأوربيين على أيدى الحكام الأوربيين وكان الحرق هو تسليتهم المفضلة . والمجازر التى أقامها نيرون (٦٤ ميلادية) ودسيوس (٢٤٩ — ٢٥١ م) وفاليريان (٢٥٣ — ٢٦٠ م) وديوكلشيان (٣٠٣ — ٣٠٥ ميلادية) معروفة لكل قراء تاريخ الكنيسة المسيحية . وتاريخ الصراع من أجل السلطة بين البابا والدولة حافل بحروب دينية قاسية مرة لم يلتفت فيها الى قيمة الحياة

الانسانية وقد تعرض اللولارديون في انجلترا للحرق بل لقد بلغت قسوة الانجليز الذروة فاستخرجوا في سنة ١٤٤٨ عظام ويكليف زعيمهم الذي مات سنة ١٣٨٤ واحرقوها ورمو برمادها في مجرى قريب . وتزداد أهمية هذه النقطة حين نذكر انه في سنة ١٩٢٠ في ولاية نبراسكا بالولايات المتحدة امسك بعض البيض في ثورة غضبهم بزنجي اتهم بالاعتداء على امرأة بيضاء وخلصوه من أيدي القانون وأوسعوه ضربا ثم ربطوه الى عمود وحرقوه حتى حال رمادا . وحرق جون هس وكرانمر وغيرهما من المصلحين الأوربيين الآخرين معروف للجميع . وليست محاكم التفتيش الاسبانية المخزية ومذبحة فرساي التاريخية التي فقد فيها آلاف من الفرنسيين حياتهم . وحروب انجلترا الدينية المروعة التي بدأت بموت هنري الثامن وانتهت بالثورة المجيدة في سنة ١٦٨٨ وحروب المستعمرين الأمريكيين في القرن السابع عشر الغير دينية الفظيعة المريرة . ليست كلها الا أمثلة ظاهرة على التوزيع المتساوي للقسوة على كل الجنس البشري .

وقد أخطأ كلويت كذلك في تقريره أن الافريقي لا يهتم بحياة الغريب فالغريب في أغلب أجزاء افريقية يتمتع بحماية خاصة وحينما مات دافيد ليفنجستون في قرية سيتاندا في وسط افريقية حمله الافريقيون الى أقرب ميناء حتى يرقد بين أهله لا بين قوم غرباء « وعلى العكس ان من عاش منا في افريقية يحس بأن الرجل الأبيض هو الذي لا يهتم بحياة غير البيض . ويشهد الهنود واليابانيون والصينيون وزنوج أمريكا على نفس الشيء . فحينما تظاهر الهنود المسالمون أمام مقر القيادة البريطانية في الهند أطلق الجنرال « دير » النار عليهم وقتل منهم أكثر من ٥٠٠ شخص . وحينما طالب الوطنيون من الهوفا في مدغشقر بحق تقرير المصير في سنة ١٩٤٧ قتلت منهم السلطات الفرنسية ٨٠٫٠٠٠ ومن المعروف أن الألمان قتلوا

٦٫٠٠٠٫٠٠٠ فى عنابر الغاز وبوسائل أخرى . ووسائل النازى فى التعقيم معروفة للجميع ولا تستلزم وصفا . أما القنبلة الذرية الأمريكية التى القيت على هيروشيما سنة ١٩٤٥ فهى لا تستدعى منا تعليقا . وجماعة كون كلوكس كلان التى يتكون أعضاؤها من أخلاط من الناس من أحط طبقات البيض الى القسس المسيحيين والتى وهبت نفسها لتخطيط الأعمال الوحشية ضد الزنوج تظهر بوضوح كيف يستهين بعض البيض فى الولايات المتحدة بحياة الزنوج وتظهر المجازر التاريخية لكل الاقليات فى الولايات المتحدة وأوربا افتقار مدبرى هذه المجازر للانسانية والرحمة . وهذا كاف لاقناع القارىء بخطأ كلويت حين قال « ان الافريقى لا يهتم بالحياة الانسانية وحياة الغريب على الأخص . ذلك انه جعل « سوء معاملة الانسان لأخيه الانسان » مقصورة على الشعوب الافريقية . ولكل الرذائل الأخرى نجد ان سوء معاملة الانسان لأخيه الانسان موزع على الجنس البشرى كله . ويجب الا يخدع جنس ما نفسه فيظن انه برىء من هذه النقيضة الانسانية التى عرفت منذ فجر الانسانية . لقد ارتكبت الدول المسماة أكثر دول العالم تحضرا نفس هذه الجرائم الوحشية تماما كما ارتكبتها أكثر شعوب العالم بدائية . وتمتلىء صحف الامريكتين وأوربا وأسيا واستراليا وافريقية بحوادث ضرب الزوجات وقتلهن والاغتصاب والدعارة والسطو والسرقة والتسميم والطلاق وسفاح المحارم والجنايات وما شابهها . وقد أظهر الدكتور يوجين م . نيدا فى كتابه « تقاليد وحضارات » بعد نظره حين قال « ان كل التصرفات الانسانية متشابهة أساسا . والحقيقة اننا كلنا اخوة فى قرارة نفوسنا » .

ويجب أن ننهى هذا الفصل ببعض الملاحظات . ان الكتاب عن افريقية من النوع الذى ذكرناه يجمعون المعروف من نقط الضعف الانسانية

وسقطات الجنس البشرى من القطب الشمالى الى القطب الجنوبى ومن الشرق الى الغرب ويصبونها على القارة الافريقية حتى يمكنهم ان يقولوا بعد ذلك للدنيا بأسرها « انظروا الى هؤلاء المتوحشين القساة الذين لا يقدرون الانسانية العميقة فى العهد الجديد (من الانجيل) والذين لا يستوحون الا سفك الدماء فى العهد القديم والذين ليس تاريخهم الذى امتد قرونا الا سجلا لحروب قبلية جائرة . انهم لا يستحقون أية حرية . فالعالم غير آمن فى أيديهم » . بهذا الاسلوب يأمل هؤلاء الكتاب ان يروا سيادة البيض وقد استقرت فى كل أنحاء افريقية . وهم للأسف يظهرون بذلك عجزهم عن فهم الأسس الحقيقية للطبيعة الانسانية . وفى هذا العصر الذى يجد فيه الناس من شتى الأجناس أنفسهم مضطرين للحياة جنبا الى جنب لا يجدى تشويه الصورة الحقيقية لأى جنس من الأجناس هـذا التشويه الخطير . ولما كان الرجال والنساء ذوو النفوس الطيبة يعملون على ايجاد التفاهم والسلام فى العالم الذى ساده التوتر وعدم الاطمئنان والخوف فلابد أن نطرح الذاتية جانبا فى سبيل الوصول الى الحقيقة ، تلك الحقيقة الموضوعية التى تدفعنا الى أن نركع أمامها ، لندرك بقلوب خاشعة ان فى عروق الجنس البشرى كله تجرى رغبـة قوية فى الظلم والوحشية والقسوة والضعف والرقة . هذه هى الحقيقة الجامعة التى ستجعل الرجل الأسـود والأبيض والأصفر والأسـمر يقدر اننا جميعا كالخراف الضائعة التى ضلت السبيل ؛ واننا جميعا فى أشد الحاجة الى التوبة الى الله .

الفصل الثامن

العقلية العامة للاوربيين

يجد الأوربى فى افريقية نفسه محاطا بأعداء كثيرين من صنفه . وهـذا ناتج عن عدم رغبته فى المساواة مع غيره من الناس خارج نطاق جنسه ، أو بعبارة أخرى ان اصرار الرجل الأبيض على فرض سيطرته على افريقية بصرف النظر عن شعور الافريقيين خلق الحالة التى يجد الرجل الأبيض فيها نفسه محاطا بنيران قد يكون من السهل القضاء عليها اذا احسـن التصرف نحو غيره من الناس خارج نطاق جنسه . ان الرجل الأبيض يجد نفسه بطريقة ما محاطا بنارين كبيرتين فهو من ناحية يخشى تقدم الديمقراطية فى افريقية وانتصارها لأنها تعنى القضاء على تفوق البيض الذى يتثبت هو به بكل قواه . انه يخشى انتصار الديمقراطية التى دافع عنها قرونا !!! وهو من ناحية أخرى يخشى امكان تفشى الشيوعية فى افريقية اذ أن الشيوعية والديمقراطية لا يمكن أن يعيشا تحت سقف واحد . وانتصار احداهما يعنى هزيمة الأخرى . ان الرجل الأبيض فى افريقية يبدو كما لو كان يقول . « ابعدوا الشيوعية عن افريقية » . ثم يقول من ناحيـة أخرى : « ابعدوا الديمقراطية عن الافريقيين » .

ولكن يبدو أن القـدر قد صمم على انهاء نفوذ البيض اذ أنه اذا أصبحت الديمقراطية أو الشيوعية حقيقة مستقرة فى القارة الافريقيـة فلن يقوم لتفوق البيض قائمة . واذا نظرنا الى الأمر من هذه الزاوية نجد أن الديمقراطية والشـيوعية قد تحالفتا عـلى تفتيت تفوق البيض . ولكن

بالاضافة الى هـذا التحالف توجد القومية الافريقية التى ترجح كفـة الديمقراطية فى القضاء على تفوق البيض . ولا نستطيع أن ننكر أن القومية الافريقية قد تستغل الشيوعية كوسيلة لحصول الافريقيين على حريتهم واستقلالهم . تماما كما استعمل المستعمرون الأمريكيون الأسلحة الفرنسية لنيل استقلالهم دون أن يصبحوا فرنسيين بالضرورة . ومن الناحية العملية نجد أن الوضع فى افريقية يتخلص فى خوف الرجل الأبيض من الشيوعية التى تهدد حياته ، وهو يخشى الديمقراطية اذ أنها تقوم على أساس ارادة الأغلبية . والأغلبية فى هذه الحالة من الافريقيين الذين استعبدهم الرجل الأبيض وحرمهم من أى مشاركة فى حكومة البلاد المركزية . وهو يخشى القومية الافريقية كذلك اذ أنها تطالب بمنح الديمقراطية للأغلبية غـير البيضاء . وعند هذه النقطة يضطرب تفكير الرجل الأبيض السليم حتى يصبح موزعا بين صوت الحق وصوت القوة مرجحا لصوت القوة ولكنه يخشى الانصات التام الى صوتها اذ أنه بذلك يعود الى قانون الغابة حيث تقع أضعف الحيوانات فريسة لأقواها . وقد حذر من ذلك أنورين بيفان أثناء العدوان البريطانى الفرنسى على مصر فقال « اذا كانت الحكومة تود أن تعود الى فرض قانون الغابة فلتتذكر ان بريطانيا وفرنسا ليستا أقوى الحيوانات فيها . فان هناك حيوانات أكثر خطورة تعيش حولهما » .

وقد سبب اجتماع النقيضين هذا لدى الأوربى فى افريقيا ما نسميه عقلية منفصمة ، عقلية تعارض علانية وبقوة القوانين الأخلاقية العـادية حينما يتعلق الأمر بحرية الشعوب الافريقية واستقلالها . ومع أن الأوربى فى افريقية يدعى أنه يخلص للديمقراطية فان تصرفاته تدل على أنه ألد أعدائها . اذ أنه يصر عـلى أن يحول بكل الوسائل دون تمتـع ملايين الافريقيين بالديمقراطية التى يطالبون بها فعلا . ومن المنطق اذن اذا كانت

الديمقراطية مقصورة على الأوربيين أن تبحث الملايين الغفيرة من الافريقيين عن وسيلة أخرى تحل محلها ، ومهما كانت ذكريات عهد ارهاب الماو ماو مؤلمة فان الباحث الموضوعى لا يستطيع الا أن يتأثر بحقيقة أن الحركة كلها قامت على أساس محاولات يائسة للاعتراف بالحقوق الشرعية للشعوب الافريقية . وقد لجأ أعضاء الماو ماو الى هذه الاجراءات لأنهم أرادوا أن يكون لهم رأى فى شئون بلادهم . هذا الأمر يؤيده كثير من الافريقيين فى كينيا الذين سنحت لى فرصة التحدث اليهم فى هذا الموضوع. ويؤيده أيضا أن بعض الاصلاحات السياسية كاشراك الافريقيين فى حكومة البلاد المركزية قد تمت أثناء عهد ارهاب الماو ماو وبعده . وقد أخرجت حركة الماو ماو السياسة البريطانية عن طورها وكان ذلك خيرا لولا الخسارة الفادحة فى الأرواح .

وفرنسا مثل آخر طيب للدلالة على أن القوى الأوربية تفعل أى شىء فى سبيل أن تبقى الديمقراطية فى افريقية مقصورة على الرجل الأبيض . فقد كانت سياسة الفرنسيين تجاه الافريقيين الذين يطالبون بالحكم الذاتى حتى السنوات الأخيرة سياسة القمع القاسية والرفض الصريح بمنح الافريقيين حريتهم واستقلالهم التام . ففى مراكش مثلا حين طالب العرب باستقلالهم التام خلع الفرنسيون السلطان الشرعى محمد الخامس واستبدلوه بصنيعتهم السلطان بن عرفة . والفرق بين الرجلين هو ان السلطان محمد الخامس كان يعارض تسلط الفرنسيين على العرب بينما كان بن عرفة يساند هذه السيطرة . وقد قتل العرب ردا على ذلك أكثر من ألفى مستوطن فرنسى وأخذا بالثأر قام الجيش وسلاح الطيران الفرنسى بتدمير قبائل بأكملها . ومن المعتقد أن ٦٠٠٠٠ عربى قد قتلوا . وقد تم كل ذلك تحقيقا لأمل الفرنسيين « بأن تكون ارادة الشعب الفرنسى نافذة

فى مراكش كما هى نافذة فى فرنسا » . ولكن المراكشيين كانوا مصممين كذلك على أن « ارادة المراكشيين لا الفرنسيين هى التى ستكون نافذة فى مراكش » . وبعودة السلطان محمد الخامس الى مراكش وحصول المراكشيين على استقلالهم التام عاد السلام والأمن الى هذا الجزء من افريقية .

وكانت الجزائر هى التى تلت مراكش فى مطالبتها بالاستقلال التام عن فرنسا . وقوبل طلبها بنفس أعمال القمع القاسية . ويقدر أن هناك الآن (١٩٥٧) ٣٠٠ر٠٠٠ جندى فرنسى يقفون على استعداد لقتال الثوار الجزائريين . ويعتقد الخبراء العسكريون الفرنسيون انه اذا أمكن زيادة هذا العدد الى ٤٠٠ر٠٠٠ فسيقضى على الثورة الجزائرية كلها وبعبارة بسيطة يجب أن يمحى الجزائريون لأنهم يطالبون باستقلالهم التام ولا يبقى منهم الا من يستسلم لارادة الفرنسيين . انها فى الواقع مباراة اما أن يفوز فيها الفرنسيون أو العرب بالسيطرة على شئون الجزائر كلها . ويرى كثير من المراقبين الافريقيين ان قسوة الروس ضد الثورة فى المجر لا تزيد عن قسوة الفرنسيين ضد الثورة الجزائرية . والثورة الجزائرية كالثورة المجرية هى فى حقيقتها محاولة من جانب الجزائريين للحصول على الديمقراطية . وهكذا نرى أن الافريقى الذى يأمل فى الديمقراطية يصبح هدفا لكراهية الأوربيين وشكوكهم تماما كالذى يعتنق الشيوعية . ويصبح الافريقى الديمقراطى أو الشيوعى أو القومى هدفا للرصاص الفرنسى وبالاختصار فان الفرنسيين يريدون ألا يكون للجزائريين أية قيمة ويقاوم الجزائريون هذا المبدأ .

لقد ذكرنا فى فصل سابق أن الديمقراطية هى ارادة الأغلبية . ولب الشيوعية والدكتاتورية هو العكس أى ارادة الأقلية . والديمقراطية كما

تمارس فى بريطانيا وغرب أوربا والولايات المتحدة تكاد تتفق مع المدلول الأصلى للكلمة ولكن الديمقراطية كما تمارسها القوى الأوربية فى افريقية تتفق مع مدلول الشيوعية أو الدكتاتورية اذ لا تسود فى افريقية التى يحكمها الأوربيون ارادة الأغلبية الافريقية بل ارادة الأقلية الأوربية . وبينما تهدد الشيوعية الروسية الديمقراطيات الغربية فى أوربا تواجهنا فى افريقية الدكتاتورية الأوربية التى تهدد حق الافريقيين فى تقرير المصير . أى أن الديمقراطية كما يمارسها الأوربيون فى افريقية ليست ديمقراطية أوربية ولا افريقية . بل هى أقرب ما تكون الى الشيوعية الروسية ما دامت القوى الأوربية تعتمد فى بقائها فى افريقية على القوة العسكرية لا على ارادة الأغلبية . وتحيا أغلبية الشعوب فى القارة الافريقية تحت رحمة المستعمرين ، تماما كما تعيش الدول التى تدور فى فلك روسيا تحت رحمة الشيوعية الروسية . وليست لهذه الشعوب وسائل دستورية تكفل لها التخلص من حكومات البيض حين تسيىء تصريف أمورها . ومن المؤكد أن بقاء ١٥٠ مليون افريقى تحت رحمة خمسة ملايين من البيض لا يمكن أن يسمى ديمقراطية افريقية أو أوربية بالمعنى الصحيح للكلمة . ان الأصابع كلها تشير الى الشيوعية .

ويتبع الأوربيون الوسائل الديمقراطية فى معاملاتهم مع بعضهم البعض ولكنهم فى تعاملهم مع الافريقيين يستعملون الوسائل الشيوعية أو الدكتاتورية . فالديمقراطية لهم والدكتاتورية للافريقيين ! ولا يوجد مثل خير من ذلك لازدواج المستويات . وهذا ما نعنيه بأن للأوربيين « عقلية منفصمة » — عقلية تتسع لنظامين سياسيين متناقضين أساسا » .

وسنحاول فى بقية هذا الفصل أن نفسر عقلية الأوربيين بالنسبة لمسألة حرية الافريقى واستقلاله حتى يستطيع القارىء أن يرى بوضوح ما يعنيه

الكفاح القومى الدائر فى افريقية . ومهما يكن من أمر فنحن ندرك أننا نقف على أرض زلقة اذ أن أى تفسير لن يكون فوق مستوى الخطأ ، واذ يصعب أن نعرف ماذا كان يعنيه فلان حينما قال كذا وكذا . ومن ثم فسيكون سبيلنا فى التفسير أن نصف ونشرح ما جاء فى التصريحات السياسية لكبار الساسة الأوربيين عن العقلية الافريقية . ونضع على المشرحة السياسية حتى أكثر الرجال أهمية ثم نقوم بعملية تشريح كاملة اذ أن ما يقولونه يؤثر أكبر الأثر على الكيان السياسى لافريقية المتعددة الأجناس .

كان سير ونستون تشرشل هو الذى قال ذات مرة « انه لم يصبح رئيس وزراء بريطانيا ليعمل على تصفية امبراطورية جلالة الملك ، قال هذا حين كانت الهند تطالب باستقلالها التام عن بريطانيا . وكان ذلك يعنى شيئا واحدا بالنسبة للافريقيين وهو أن السير ونستون تشرشل كان مصرا على استمرار الاستعمار البريطانى . وهذا يعنى استمرار خضوع الافريقيين ، يعنى انكار الحرية والاستقلال على الافريقيين وقد عجب كثير من الافريقيين كيف استطاع هذا الرجل الذى عارض سيطرة النازى أن يدلى بهذا البيان الذى يعضد نفس المبدأ الذى عارضه ببطولة ؛ واتضح للافريقيين أن السير ونستون تشرشل الذى كان يدافع عن الديمقراطية الغربية لم يكن مستعدا أن تمنح هذه الديمقراطية للشعوب المستعمرة . وبدا هذا للافريقيين شبيها بقول « الحرية للبريطانيين والتبعية للافريقيين » . اذ أن منح الحرية للشعوب الافريقية أو أى شعوب أخرى تستعمرها بريطانيا كان يعنى بالضرورة تصفية الامبراطورية البريطانية . تلك التصفية التى كان السير ونستون تشرشل حريصا على تفاديها . وهذه العقلية الظاهرة

الازدواج هى التى تحيى كثيرا من الافريقيين فى محاولاتهم لفهم الشعوب الغربيـــة .

ويعتبر البرت شفيتزر الذى فعل الكثير من أجل آلاف الافريقيين طوال حياته . مثلا طيبا كذلك لدراســة موقف الأوربى من الشــعوب الافريقية . ويصف جون جنتر موقف البرت شفيتزر تجاه الشــعوب الافريقية فى العبارة التالية :

« ان فكرة حقوق الانسان قد نشأت وتطورت .. عندما كان المجتمع شيئا منظما مستقرا .. أما فى المجتمع غير المنظم فان حياة الانسان نفسه كثيرا ما تتطلب منه التخلى عن كثير من حقوقه الأساسية .

والانطباع الذى يتركه هذا القول فى ذهن الافريقى هو أن شفيتزر يعارض استقلال الافريقيين التام . انه يبدو كما لو كان يعتقد أنه لم يكن هناك أبدا مجتمع افريقى منظم مستقر ، ولم يكن هناك أبدا شىء اسمه حق الفرد فى المجتمع الافريقى أو بعبارة أخرى ان فكرة حقوق الانسان ليست فكر افريقية . ويبدو أن شفيتزر يفترض أن المجتمع الافريقى كان دائما غير منظم . واذا كان هذا هوما يعنيه فلا شىء أبعد عن الحقيقة من ذلك . فالمجتمع الافريقى رغم بسلطته وبدائيته قد بهر بتنظيماته واستقراره أنظار دارسى الانتربولوجية الافريقية . وتكون براعة الأوربيين فى حكم افريقية فى حكمهم غير المباشر الذى يقوم على أساس الاعتراف بالتنظيم الاجتماعى والاستقرار فى كثير من القبائل الافريقية . فالحكم غير المباشر لا يعنى أكثر من فرض سلطة عسكرية قوية سلطانها على قبيلة أو عدة قبائل منظمة مستقرة ذات تنظيم عسكرى ضعيف . ولا يخلق الحــكم غير المباشر نظاما جديدا بل يطوع نمط الحياة الذى يجده عند الوطنيين ويستغله ويفيد منه الى أبعد حد . ومن ثم فاذا كان شفيتزر يعنى أن

المجتمع الافريقى لم يكن منظما أو مستقرا فقد أثبتت الحقائق عكس ذلك .

ومن هذا التصور الخاطىء لمجتمع غير منظم ، يستمد شفيتزر فكرة تخلى الافريقى عن بعض حقوق الانسان الأساسية ويعتقد الافريقى ان منطق شفيتزر يسير على النحو التالى : المجتمع الافريقى غير منظم ولا يمكن ممارسة الحقوق الانسانية كاملة الا فى مجتمع منظم تنظيما جيـدا ، ولما كان المجتمع الافريقى غير منظم فلابد أن تختصر حقـوق الانسان الافريقى .

ان الافريقى يهمه جدا أن يحدد المعنى الحقيقى لاختصار بعض هذه الحقوق الانسانية الأساسية وقد فسر أحد الطلبة الافريقيين من تنجانيقا عبارة شفيتزر بما يلى :

ان شفيتزر يقول للعالم ببساطة « يجب اختصار حقـوق الانسان الافريقى لا تعطوه كل الحقوق الانسانية الأساسية لأنه ينتمى الى مجتمع غير منظم . ان العالم يتعرض لخطر جسيم اذا فعلتم ذلك » . وملخص القول ان شفيتزر يقول « لا تعطوا الافريقى حرية واستقلالا تاما » .

وقد يبدو تفسيرنا لقول شفيتزر مبالغا فيه الى حد ما ؛ ولذا فسنحاول أن نجد له تبريرا . ان الافريقى ينظر حوله ليرى التطبيق العملى لنظرية اختصار حقوق الانسان الأساسية هذه ، فيزداد تأثرا بما تخصه به القوى الأوربية . انه يلاحظ أن الحكومة فى كثير من الأحيان تعلق حالة الطوارىء حين يضرب العمال الافريقيون عن العمل وبذلك تضع زعمـاء العمـال الافريقيين تحت رحمة القانون . ولكنها لا تتخذ مثل هذه الاجراءات حينما يضرب العمال الأوربيون . وهو يلاحظ علاوة على ذلك أنه عندما

تحارب التنظيمات السياسية الافريقية بكل قواها تشريعات التفرقة تصدر الحكومة المكونة عادة من البيض قوانين تكاد تحل هذه المنظمات . أى أنه بينما تعترف الحكومة بالوجود الشرعى لهذه المنظمات فانها تعرقل نشاطها عن عمد . كذلك يلاحظ الافريقى أنه كلما طالب الافريقيون بالحرية التى هى حق من حقوقهم الطبيعية سرعان ما يعتقل زعماء مثل هذه الحركات التحررية ويصبح معنى قول شفيتزر باختصار الحقوق الانسانية الأساسية واضـحا .

وقد نسأل أنفسنا الآن : ما معنى اختصار حقوق الانسان الأساسية ؟ من الواضح أن العبارة لا تعنى الحرمان التام أو الانكار المطلق للحقوق ؛ بل تعنى الحرمان والانكار الجزئى لهذه الحقوق . وهـذا بدوره يعنى الاعتراف الجزئى أو الاقرار الجزئى . فاحتقار حقوق الانسان الأساسية هو سلب بعض هذه الحقوق والابقاء على بعضها الآخر . ولكن نوع هذه الحقوق وكميتها يتوقفان على من يقوم باختصارها . فما هى حقوق الانسان هذه ؟ انها المساواة بين البشر فى الكرامة والحقوق ، والتخلص من التفرقة على أساس العرق واللون والجنس واللغة والدين والمعتقدات السياسية ؛ ثم حرية الكلام والتعبير والعمل والصحافة . كذلك فحرية تقرير المصير هى من حقوق الانسان الأساسية المكفولة لكل الشعوب .

من الواضح أن العبارة لا تعنى الحرمان التام أو الانكار المطلق للحقوق ،
الانسان الأساسية وفى النهاية نجد أن تقبل مبدأ اختصار هذه الحقـوق يعنى وضع مجموعة من الناس تحت رحمة مجموعة أخرى . وهذا يعنى بصراحة ان اختصار حقوق الانسان بالنسبة للافريقى يعنى وضع الشعوب الافريقية تحت رحمة القـوى الأوربية . واذا سلمنا بهذا فانه يعنى أن الافريقى يستمد حقوقه الانسانية من هـذه القوى الأوربية أى أن هذه

القوى الأوربية هى المصدر الرئيسى للحقوق الانسانية الأساسية للافريقى فى حين أن الافريقى يستمد حقوقه الانسانية فى الواقع لا من انتمائه لهذه القوة الأوربية أو تلك ولكن من كونه ينتمى الى الأسرة الانسانية . ومن ثم فمن الواضح أن مختصر الحقوق الانسانية الأساسية على أى منطق انما هو ديكتاتور — وهذا أكبر تناقض مع الديموقراطية .

وربما كان رأى سلودان . م . دراسكوفيتش مفيدا للغاية فى هــذا المجال فهو يقول فى تحليله البارع لطبيعة الشيوعية « .. لا يعترف بحق الشعوب فى الحرية والاستقلال وتقرير المصير الا اذا كانت تخدم أغراض الشيوعية وتعضد القــوى الشــيوعية » . وكان بامكانه أن يقول « ان الشيوعيين يختصرون الحقوق الانسانية الأساسية حينما تهدد مصالحهم » . وهذا يصبح أكثر سدادا حينما تتذكر أن المختصر هو الرجــل الأبيض ذو المصالح الحيوية فى القارة الافريقية .

وقد قال جوزيف ستالين ذات مرة « هناك أوقات يتعارض فيها حق تقرير المصير مع حقوق اسمى — كحق الطبقة العاملة التى استولت على السلطة لتقوى سلطتها . وفى مثل هذه الحالات يجب أن نقول صراحة ان حق تقرير المصير لا يستطيع بل ولا يجب أن يقف عقبة فى سبيل ممارسة الطبقة العاملة لحقها فى الدكتاتورية ويجب أن يترك الأول مكانه للآخر . وهذا مثلا هو ما حدث فى سنة ١٩٢٠ حينما اضطررنا للقتال فى وارسو لنحمى سلطة الطبقة العاملة .

من الواضح اذن أن الشيوعية ترمى لا الى انكار حقــوق الانسان الأساسية كلية بل الى اختصارها . فدوافع جوزيف ستالين وأهــدافه لا تزيد ولا تنقص عن دوافع الشعوب الأوربية فى افريقية وأهدافها : وكان بوسع المستعمر الفرنسى أن يقول :

« هناك أوقات يتعارض فيها حق الافريقى فى تقرير المصير مع حقوق اسمى ومع حق الحكومة الفرنسية التى استولت على السلطة لتقـوى سلطتها . وفى مثل هذه الحالات يجب أن نقول صراحة : ان حق الافريقى فى تقرير المصير لا يستطيع ولا يجب أن يقف عقبة فى سبيل ممارسة الحكومة الفرنسية لحقها فى السيادة . ويجب أن يترك الأول مكانه للآخر . وهـذا مثلا هو ما حدث فى سنة ١٩٥٧ حينما اضطررنا للحرب فى الجزائر لنحمى الحكم الفرنسى » .

وهناك جانب آخر من تفكير شيفتزر هو نظرية « الأخ الأكبر » فى العلاقة بين الافريقى والأوربى اذ يقول :

« وثمة كلمة عن العلاقة بين البيض والسود . ما هى الخطوط العريضة التى يجب اتباعها فى اتصالاتهما ، هل أعامل الأسود كفرد مساو لى أم أقل منى ؟ يجب على أن أظهر له أننى أستطيع احترام كرامته الشخصية الانسانية فى كل فرد ، وفى استطاعته أن يتبين لنفسه هذا السلوك فى ولكن ما يهم هو أن تكون هناك أخوة حقيقية أما مدى التطبيق الكامل لهذا فى أقوالنا وأفعالنا اليومية فيترك تقريره للظروف . ان الزنجى طفل ولا يمكن عمل أى شىء مع الأطفال الا باستعمال السلطة . فعلينا اذن أن تنظم ظروف حياتنا اليومية بحيث نستطيع التعبير عن سلطاتنا الطبيعية ومن ثم فقد وضعت هذه الصيغة فيما يتعلق بالزنوج « أنا أخوك ، هذا حقيقى ولكن أخوك الأكبر » .

ويعتبر شفيتزر الافريقى طفـلا (مثله مثل الهولنديين الذين اعتبروا الأندونسيين أطفالا أبرياء فى حاجة دائمة الى رعاية الهولنديين الأبوية) انه يلعب دور « الأب الأبيض الكبير » واذا كانت هناك زلة يقع فيها أغلب البيض فهى هذه بالتأكيد .

هذا ويميل كل الغربيين الى معاملة غير الغربيين جميعاً كما لو كانوا أطفالا ولقد عجب الهولنديون حين نجح الأندونيسيون الذين طالما عاملوهم كأطفال صغار فى القيام بثورة انتهت بتحرير ٧٨ مليون أندونيسى واستقلالهم استقلالا تاما . ان مفهوم شفيتزر عن الافريقى صحيح — بمعنى أنه يحول الافريقى الناضج الى طفل ، عن عمد حتى يستطيع أن يبرر فرض النفوذ الأوربى عى الافريقيين انها لاهانة كبرى أن ينظر رجل الى رجل آخر نظرته الى طفل . ويبدو موقف شفيتزر أكثر وضوحا فى نظريته « الأخ الأكبر » .

ويقرر شيفتزر أن الأسود والأبيض اخوان ولكنه يحدد ذلك بقوله : ان الرجل الأبيض هو الأخ الأكبر للرجل الأسود . ولا يدرك مفهوم الأخ الأكبر مالم يوجد أخ أصغر . ومن ثم فالرجل الأسود فى هذه الحالة هو الأخ الأصغر للرجل الأبيض . وفى المجتمع الافريقى يقدس الأخ الأصغر أخاه الأكبر فى هذه الحياة وفى الآخرة . ولا يؤول الافريقى « نظرية الأخ الأكبر » لشفيتزر الا بهذا المعنى . وبعبارة أخرى فان الأخ الأكبر تبعا للتقاليد الافريقية يمارس سلطته التى لا حدود لها على أخيه الأصغر . واذن فنظرية الأخ الأكبر من الناحية السياسية تعنى سيطرة البيض (الأخ الأكبر) على الافريقيين (الأخ الأصغر) ويرى الافريقى فى هذه النظرية السيطرة الدائمة لا المؤقتة على الشعوب الافريقية . اذ أن الزمن لا يمكن أن يقف حتى يلحق الأخ الأصغر بالأخ الأكبر ومعنى هذا أن تستمر دائما سيطرة البيض وخضوع الافريقيين . وبينما تتقبل قلوب الافريقيين مفهوم نظرية شيفتزر فى الأخوة بين السود والبيض فان جانب « الأخ الأكبر » فيها يجعل الخوف يدب فى هذه القلوب فهى تجعل الافريقى يشعر بأن خضوع الافريقيين الذى لا نهاية له مستقر فى قرارة نفس شفيتزر .

ولا شك ان نظريات شيفتزر الثلاث وهى :

(١) اختصار بعض الحقوق الانسانية للافريقى (٢) الزنجى طفل ومن ثم فالرجل الأبيض أبوه (٣) الرجل الأبيض هو الأخ الأكبر للرجل الأسود . تؤيد الفكرة السائدة بين المفكرين الافريقيين بأن شيفتزر يعارض أساسا المساواة بين الأجناس فى أى صورة وفضلا عن ذلك فكثير من البيض يشاركون شيفتزر فى هذه النظرة .

وسيظهر فحصنا للمبادىء السياسية المختلفة السائدة فى أفريقية كيف تعمل العقلية الأوربية فيما يتعلق بالشعوب الافريقية . ففى افريقية الشرقية البريطانية مثلا يفرض نمط جديد من السياسة الحكومية . وهو ما يسمى العنصرية التعـددية . والهدف المقرر لهذه السياسة هو أن تشارك كل الأجناس فى مجتمع متعدد الأجناس مشاركة كاملة فى الحكومة المركزية للبلاد . أو بمعنى آخر فان « العنصرية التعددية » هى محاولة التخلص من سياسة الاستبعاد الأوربية غير المقبولة لتحل محلها سياسة شمول . وأساس الاعتراض على حكومة بيضاء استبعادية لصالح سياسة شمولية هو أن مجتمعنا متعـدد الأجنـاس يجب أن تنعكس صورته فى تأليف الحكومة . وهذا يعنى أن الحكومة المتعددة الأجناس هى وحدها التى تستطيع أن تعكس بصدق صورة المجتمع المتعدد الأجناس الصحيح . ومن ثم فتطبيقا لهذه العقيدة أخذ بمبدأ التمثيل المباشر للأجناس ووضع موضع التنفيذ . وبالرغم من القصور الفاضح فى هذه السياسة فان من المؤكد أنها أكثر تقدما من السياسة السابقة التى كانت تستبعد الافريقيين من المشاركة فى حكومة البلاد .

ولكننا من ناحية أخرى نجد أن الفحص الدقيق لهذه السياسة يظهر

ان الأحوال السياسية فى افريقية الشرقية البريطانية متعددة الأجناس تسير على أسس عنصرية . وان مقصدها الحقيقى هو جعل الانتخاب العام لصالح تفوق العنصر الأبيض . ففى كينيا مثلا نجد فى المجلس التشريعى ١٤ أوربيا و ١٤ افريقيا و ٦ آسيويين وعربيا واحدا . يكونون عدد الأعضاء غير الرسميين . وخلاصة هذا التكوين المتعدد الأجناس هو ألا يزيد عدد الأعضاء غير البيض على عدد الأعضاء البيض فمن بين ٣٢ عضوا بحكم وظائفهم يوجد عضوان اثنان فقط من الافريقيين بحيث لا يوجد فى المجلس التشريعى المكون من ٦٧ عضوا (٣٢ عضوا رسميا (بحكم وظائفهم) و ٣٥ عضوا غير رسمى) سوى ١٤ افريقيا يمثلون ٥ ملايين افريقى . بينما يمثل الأعضاء غير الافريقيين ربع مليون من غير الافريقيين (البيض والآسيويين) وفى تنجانيقا حيث يتساوى عدد ممثلى البيض والآسيويين والأفارقة بنسبة عشرة أعضاء لكل منهم . نجد نفس الاتجاه السياسى ، فعشرة أفارقة يمثلون ٧ ملايين من الافريقيين بينما يمثل بقية الأعضاء أقل من ربع مليون نسمة . ان سياسة « العنصرية التعددية » تبيح لكل الأجناس المشاركة فى حكم البلاد ولكنها تظهر بوضوح عيوبها الجسيمة كحل دائم للمشكلات القائمة .

وبينما تسمح العنصرية التعددية بمشاركة الجماعة وتعترف بحقوقها فهى تنكر حقوق المواطنة الفردية . وتعنى العنصرية التعددية كما تمارس فى افريقية الشرقية البريطانية السماح للأجناس الأخرى بالمشاركة فى الشئون الحكومية ما دامت قانعة بدور ثانوى فى التكوين الكلى بينما يحتفظ بالمكان الأول للبيض وحدهم . وفى التحليل النهائى نجد أن العنصرية التعددية كأداة للحكم هى رديئة خفية لتفوق العنصر الأبيض وسيطرة

جنس على جنس آخر وحكم أقلية لا حكم أغلبية ، ورفض خلق جمهور ناخبين . وهذه هى نقطة الضعف المميتة فى العنصرية التعددية . انها حل سياسى مبنى على مبدأ تجاهل المطالب الشرعية لأغلبية الشعب لصالح مطالب الأقلية .

وقد وضعها المستوطنون بشكل أكثر صراحة حين قالوا :

« اننا نعارض أى مشروع لاستقلال اقليمى يمكن أن يذهب الى حد حرمان الأوربيين من قيادتهم وسيطرتهم على المستعمرة ككل » .

وفى قاع العنصرية التعددية نجد الحكم الأوربى المطلق يؤدى عمله . وهذا هو ما يحير الافريقى عادة عندما يطلب منه أن يميز بين الشيوعيين الروس والقوى الأوربية فى افريقية . انهما يبدوان كما لو كانا أخوين بالدم فكلاهما يسعى أبدا الى السيطرة على الشعوب الأخرى وكلاهما لا يهتم بارادة الأغلبية بل بارادة الأقلية . ورفض حق التصويت العام هو حرمان لأغلبية الناس من بعض حقوق الانسان الأساسية . ومن ثم فانتصار العنصرية التعددية اذا بقيت على حالها الراهن انتصار لتفوق العنصر الأبيض واستمرار للخضوع الافريقى .

وفى اتحاد روديسيا ونياسلاند نجد سياسة أخرى باسم مختلف ولكنها تتفق فى جملتها مع العنصرية التعددية وهى سياسة المشاركة » فقد أخذت بمبدأ التمثيل المباشر للافريقيين وطبق ، وبحسب الدستور الاتحادى لروديسيا ونياسلاند يمثل ١٢ افريقيا فقط ٦ر٥٠٠ر٠٠٠ من الافريقيين ، ويمثل الباقون (فيما عدا ثلاثة أوربيين ينتخبون خصيصا لتمثيل مصالح الافريقيين) أقل من ٣٠٠ر٠٠٠ أبيض .

وحين ضغط على الاتحاد ليجدد معنى المشاركة وجد الساسة البيض أنفسهم مضطرين الى تعريفها بالشريك الأكبر والشريك الأصغر — الأول

هو الأبيض والآخر هو الافريقى بالطبع ولكن حينما تعرضت الحكومة لضغط سياسى أكبر خرجت بتصريح أكثر جرأة وهو « يجب أن تظل الحكومة فى أيدى أناس متحضرين مسئولين » . وهذا كأنما يقولون : « ان المساواة العنصرية فى الوقت الحاضر على الأقل ستؤدى الى سيطرة السود على البيض وهذا أمر تجب مقاومته » .

ويبرر هذا التشكيل حقيقة أن مستوى الحضارة والمسئولية هـذا لا يمكن أن يحدده سوى الرجل الأبيض نفسه الذى ليس لديه الاستعداد للتنازل عن السيطرة على افريقية . واذن فمن الواضح أنه حتى فى اتحاد روديسيا ونياسالاند الذى يتبع سياسة وسطا بين سياسة التفرقة (الابرتهيد) فى اتحاد جنوب افريقية وسياسة حق التصويت العام . نجد أن الرغبة فى المحافظة على سيادة البيض على السود متأصلة عميقة .

وكان سيسل جون روديس هو الذى صاغ القول المأثور : « حقوق متساوية لكل الرجال المتحضرين » بالنسبة لافريقية التى يحكمها البريطانيون . وبما أن هذا القول لم يعد يمنح هذه الحقوق للافريقيين فورا فقد تقبله الأوربيون بسهولة ، اذ لم يكن بين الافريقيين فى ذلك الوقت من يتمتع بقدر كاف من قشور الحضارة الغربية ، ولكن الوضع يختلف الآن فقد ازداد عدد « الافريقيين المتحضرين » . ويجد الرجل الأبيض نفسه فى مواجهة أمرين . فاما أن يفى بوعده واما أن ينكث به . وهو لا يستطيع تقبل فكرة أن يصبح مواطنا متساويا مع الافريقيين ومن ثم يجد نفسه مشغولا بابتكار تعريفات بارعـة لكلمة « متحضر » بحيث يستطيع بطريقة شبه قانونية أن يستبعد أغلب الافريقيين المؤهلين لكى يصبحوا ناخبين . والمعركة المستعرة الآن فى افريقية الشرقية البريطانية وفى اتحاد روديسيا ونياسالاند هى معركة لمنع المساواة فى الحقوق السياسية

العامة للناخبين لصالح المجموعات العنصرية . وبصراحة فان الرجل الأبيض يصر على أن يكون المواطن الأول فى افريقية وكذلك يريد الافريقى أن يكون مواطنا وهو لن يقبل أى وضع أقل من هذا لأن ذلك يعنى اعتباره عنصرا منبوذا . والتفرقة العنصرية كما يصفها المبجل جورج جاى لا تعنى الا التحقير . ان الافريقى يحاول الآن أن يخلع عنه الوصمة الأوربية التى ابتلى بها . وحينما يرضى الافريقى بسياسة العنصرية التعددية أو بسياسة المشاركة فهو يعد ذلك اجراء مؤقتا لأن كلتى السياستين تؤدى الى تخليد الوصمة الأوربية التى ابتلى بها والتى جعلت الافريقى هدفا لتندر سائر الجنس البشرى . ولقد صدق الدكتور كوامى نكروما حين قال :

« ولقد كان صراع المصريين من أجل الحرية والاستقلال صراعا مريرا لشعبنا ذلك أن الشعوب الأخرى لا تعطى أى شعب ما يستحقه من الاحترام الا اذا تحرر سياسيا . ولا يمكن أن تعامل الشعوب غير المتمتعة بالحكم الذاتى على نفس المستوى الذى تعامل به الشعوب المستقلة ذات السيادة .. ولا يستطيع أى جنس أو شعب أو دولة أن تحيا حرة محترمة فى الداخل والخارج بدون حرية سياسية . ومن المستحيل أن تتحدث عن المساواة على أى أسس أخرى » .

وقد صرح عضو البرلمان مستر ولنجتون شيرما الذى أحس بالمعنى الحقيقى للاتحاد الذى فرض على نياسلاند فصرح علانية :

« انه لمن واجب كل افريقى فى هذه البلاد (نياسلاند) أن يسعى لفصم هذا الاتحاد حتى تحصل نياسلاند على حقها الكامل فى تقرير مصيرها .. وما يهمنى هنا هو أن حكم هذه البلاد لابد وان يكون للشعب الافريقى صاحب الحق الأول فيه وان أى محاولة لوضع السلطة فى أيدى الأوربيين

بأى طريقة للتصويت مقضى عليها لا محالة . وستؤدى بالبلاد الى كثير من المرارة والمصائب » .

وقد وضع مستر شيروا اصبعه على نقطة الضعف فى اتحاد روديسيا ونياسلاند . وهى : من له حق حكم البلاد ؟ هل هى الأغلبية أم الأقلية ؟ هل هم الملاك الشرعيون للبــلاد أم مجموعة من الناس تدعى التحضر والمسئولية ؟ ومن الواضح أن سياسة اتحاد روديسيا ونياسلاند قد نقلت حق حكم البــلاد من الشعب الى مجمــوعة من الناس تسمى نفســها بالمتحضرين المسئولين . وهذا هو خطأ السياسة الاتحادية ، فهى مبنية على ارادة الأقلية لا ارادة الأغلبية وأن مصالح الذين يدعون التحضر والمسئولية لتطغى على حقوق الشعب .

وقد ناقش السيد زوبيرى متمفو نفس الموضوع فى خطاب دورى طويل :

« لقد خدع السير جودفرى هنجز الشعب والبرلمان البريطانى بشعار حقوق متساوية لكل الرجال المتحضرين . وكلمة « متحضر » أقل أهمية بالنسبة لنــا من كلمة « رجــال » فليس لكلمة « متحضر » مدلول فى مصطلحاتنا السياسية . ان شعارنا هو « حقوق متساوية لكل الرجال » . فاذا كان جيراننا غير الافريقيين يعتقدون أنهم أرفع من أن تجمعهم هــذه المساواة مع من هم أقل منهم فهذا شأنهم لا شأننا » .

وقد أوصت لجنة تحقيق تردجولد بشأن قانون الانتخاب فى روديسيا الجنوبية بتقسيم الناخبين بوجوب طبقتين منفصلتين أ و ب . الأول عامة والثانية تشمل ناخبين مخصوصين . ومعظم الطبقة الأولى من الأوربيين الذين يتمتعون بالحقوق السياسية العامة ، أما الثانية فغالبيتها من الافريقيين ذوى الحقوق السياسية المحدودة للغاية . والخلاصة أن الغرض الأساسى

من هذا التكوين هو ايجاد نفوذ لفئة أ (الأوربيين) على فئة ب (الافريقيين)
وللتأكد من خضوع فئة ب لفئة أ . أى سيطرة اقليم من البيض على أغلبية
بحيث يستطيع أكبر عدد ممكن من الناس أن يشارك فى انتخاب أعضاء
الافريقيين . وهذا ما عناه المستر ابنوك دمبوتشينا حين قال :

« لقد كنت أتوقع من لجنة تردجولد أن تقلل من اشتراطات المؤهلات بحيث يستطيع أكبر عدد ممكن من الناس أن يشارك فى انتخاب أعضاء البرلمان . وأنا أعتقد بحسب تفكيرى المتواضع ان تقسيم الناخبين الى فئتين تختلفان فى المركز هو تقسيم عنصرى . فان الناخبين المخصوصين سيكونون افريقيين وسيسيطر الأوربيون على الأصوات العامة . وطبقتان من الناخبين تعنى حتما تفرقة عنصرية .

« واذا تخلصنا من الخوف من السيطرة العنصرية ، ومن أننا سيسيطر علينا يوما ما لوجدنا أنه ليس هناك فى الديمقراطية كلها شىء أفضل من الحقوق السياسية للجميع » .

والخلاصة أن الافريقيين يريدون حقوقا سياسية للجميع ، ولكن القوى الأوربية لا ترغب فى منح هذه الحقوق ، وسيقرر الصراع الدائر الآن فى القارة الافريقية ما اذا كانت الأقلية أو الأغلبية هى التى ستحكم .

وكان جوموكينياتا — وكان فيما يقال العقل المدبر لحركة الماو ماو — هو الذى قال ذات مرة « سيحاول الرجل الأبيض دائما أن يسيطر على الرجل الأسود . انها طبيعته » ولم تدحض أحداث افريقية قول كينياتا هذا . وحتى وفى نظرة سطحية نلقيها على سياسة العنصرية التعددية فى افريقية الشرقية البريطانية وسياسة المشاركة فى اتحاد روديسيا ونياسلاند يظهر بوضوح ميل الرجل الأبيض للسيطرة الدائمة على الرجل الأسود فاذا استطاع الافريقى أن يخضع نفسه لهذه الرغبة فستنتهى بين عشية

وضحاها معظم المشاكل القائمة بين الرجل الأبيض والرجل الأسود وتبدأ المشاكل حين يبذل الافريقى جهدا صادقا لمقاومة هذه الرغبة الأوربية .

لقد أوضحنا الآن كيف ينظر الافريقى الى عقلية الأوربى بعامة . انه يحاول فهمه ولكن هذا المعيار المزدوج للرجل الأبيض لا يزال يحيره حتى لقد أصبح الافريقى اليوم حذرا للغاية . وواقعيا فى تعامله مع الرجل الأبيض .

وأيا كانت المشروعات السياسية التى يقترحها الرجل الأبيض كحل لمشكلة تعدد الأجناس فى افريقية فسيظل الافريقى ينظر اليها بعين الشك وعدم الثقة ما ظلت ترمى الى تفوق البيض وبالتالى الى خضوع الافريقيين وليست طريقة الفرنسيين فى منح الاستقلال الذاتى الداخلى لمستعمراتهم الافريقية حلا لمشكلة الاستقلال الافريقى . وليس الاستقلال الذاتى الداخلى فى ظل الحكم الفرنسى الشامل خضوعا تحيط به هالة من المجد . ان الشعوب تريد أن تحكم نفسها بنفسها والسيادة الافريقية فى داخل نطاق السيادة الأوربية ليست سيادة البتة . تماما كما لا يعتبر الاستقلال الأمريكى أو البريطانى فى ظل الاشراف العام لروسيا أو الصين استقلالا حقيقيا .

حقا لقد قيل ان من الضرورى جدا — لأغراض الدفاع — أن تبقى هذه الدول الافريقية الضعيفة ، نصف المتخلفة أو المتخلفة تحت سيطرة قوى أوربية قوية . وقد ناقشنا هذا الموضوع مع بعض كبار الاخصائيين فى الشئون الافريقية من الأمريكيين والأوربيين وهم يقولون : ان البلاد الافريقية تحتاج الى الدفاع الغربى والمعونة الاقتصادية والمهارة والتعليم الغربى . وكأنهم يقولون لأن افريقية تحتاج الى هذه الأشياء عليها أن تخضع للأوربيين .

ولا يستطيع أى افريقى عاقل أن ينكر أن افريقية فى مسيس الحاجة الى المساعدات الغربية . ولكن أى افريقى عاقل لا يمكن أن يقبل هذا كمبرر لأن يحكمه الأوربيون بل ان الافريقى العاقل يقسو فى حكمه على الأوربى الذى يفكر بهذه الطريقة . ولنفرض أننا آمنا بأن القوى الأوربية مخلصة فى قولها بوجوب احتلالها للدول الافريقية الضعيفة لأغراض دفاعية فان ذلك يعنى منح القوى الأوربية نفوذا لا حد له فى كل قارة افريقية وبهذا الأسلوب فى المناقشة ليس من حق القوى الأوربية والولايات المتحدة أن تعترض على احتلال روسيا للدول الأوربية ما دام ذلك لأغراض دفاعية . وانه لمن الخطر الواضح أن يسمح لدولة كبيرة باحتلال بلد أضعف تحت ستار دفاعي واقتصادى وخاصة اذا كان ذلك رغم ارادة البلد الأضعف .

ومن الجلى أن القوى الأوربية واقعة فى ورطة . انها فى حاجة الى أن تعيد التفكير فى الكيان الكامل لعلاقتها مع افريقية حتى تصبح أكثر قدرة على تكييف موقفها من التغيرات السريعة التى تشمل افريقية كلها . وبينما يعيش الرجل الأبيض فى النصف الثانى من القرن العشرين فان أفكاره عن افريقية لا تزال أقرب الى أفكار وأواخر القرن الثامن عشر . وهذا لا يساعد على حل مشكلات اليوم فى افريقية المتعددة الأجناس .

الفصل التاسع

إفريقية والشيوعية

نود فى هذا الفصل أن نعرض للشيوعية وعلاقتها بافريقية . هل يسرع الافريقى عامة فى الاستجابة للشيوعية ؟ وهل هو يحب الشيوعية كمذهب سياسى ؟ .. وهل يرى خلاصه فى الشيوعية ؟ أو بعبارة أخرى هل تحمل الشيوعية من وجهة نظر الافريقى نفسه أى آمال براقة ؟ وليس فى نيتنا أن ندلى بأى تأكيدات خاطئة عما اذا كان الافريقى مع الشيوعية أو ضدها . ولكننا نريد أن نفحص بأمانة الصلات الواقعية والممكنة بين القومية الافريقية والشيوعية . ونرى أن أفضل طريقة لتحقيق ذلك هو أن نلفت نظر القارىء لبعض الأحداث التاريخية قبل أن نناقش المشكلة .

وتعتبر مصر نقطة بداية حسنة ، أولا : لأنها دولة افريقية حرة كثيرا ما تجرى الأنباء بذكرها ، وثانيا : لأن كفاحها من أجل الاستقلال التام سيلقى مزيدا من الضوء على مناقشتنا السابقة .

احتل البريطانيون مصر سنة ١٨٨٢ ، وفى سنة ١٨٨٣ وعدوا المصريين بأن القوات البريطانية ستجلو عنها حالما تساعد الأحوال على اتخاذ مثل هذه الخطوة . ولم تسحب القوات البريطانية الا فى سنة ١٩٥٥ . وفى سنة ١٩١٩ قامت ثورة خطيرة ضد البريطانيين بزعامة سعد زغلول . وفى سنة ١٩٢١ نظم المصريون حملة مقاومة سلبية ضد البريطانيين مما اضطرهم الى أن يمنحوا مصر استقلالا محدودا فى السنة التالية . وفى سنة ١٩٢٤ اغتال أحد القوميين المصريين المتحمسين السير « لى شاك » وقاسى المصريون

من انتقام البريطانيين الشيء الكثير . وفى سنة ١٩٣٦ حصلت مصر على استقلالها بعد صراع مرير ضد البريطانيين وقبلت عضوا فى عصبة الأمم ، فى سنة ١٩٤٧ كدولة ذات سيادة . وفى ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ قامت ثورة ناصر المجيدة التى انتزعت الحكم والسلطة من الملك فاروق ومن حزب الوفد (وكان حزبا وطنيا الى حد ما) ومن البريطانيين . ولأول مرة فى التاريخ الحديث أصبحت مصر تحكم نفسها بعد أن ظلت قرونا طويلة يحكمها أجانب .

ولقد كان صراع المصريين من أجل الحرية والاستقلال صراعا مريرا وكثيرا ما وضع البريطانيون العقبات فى سبيل مصر وفى كل مرة طلب المصريون من بريطانيا الجلاء عن مصر رفض البريطانيون أن يفعلوا ذلك . ويقول الرئيس جمال عبد الناصر :

« لطالما قال البريطانيون : انهم على وشك الرحيل ولكنهم كانوا دائما يجدون حجة يبقون بها . قالوا أولا انهم فى مصر ليحموا الأجانب من المصريين مع أن الأجانب لم يطلبوا حمايتهم قط . ثم ادعوا انهم مضطرون للبقاء لحماية الأقليات المسيحية واليهودية من المسلمين متجاهلين حقيقة أن المسيحيين واليهود انضموا الى المصريين فى مطالبتهم بسحب قواتهم من مصر . وكان الدفاع عن قناة السويس والمحافظة على خطوط مواصلاتهم مع الهند وامبراطوريتهم فى الشرق الأقصى هى حجتهم الأخرى . وحينما قامت الحرب العالمية الثانية قالوا انهم لا يستطيعون الرحيل لأن قناة السويس قاعدة هامة . وبعد انتهاء هذه الحرب فسروا وجودهم بأنه ضرورة لحماية مصالح العالم الحر » .

وبالاختصار لقد كانت معجزة أن نالت مصر استقلالها التام من بريطانيا . ولأول مرة آمن المصريون بأنفسهم كسادة مصيرهم . لقد تعلموا

بالتجربة المريرة معنى الخضوع لقوة أجنبية . ولن نكون مبالغين اذا قلنا : ان التاريخ المصرى قد أكسب مصر مناعة ضد الحكم الأجنبى . ولعل ذلك مما يفسر حساسية المصريين لسيادتهم الجديدة . ولعل ذلك مما يفسر أيضا رفض المصريين لتلقى الأوامر من وشنطن أو لندن أو موسكو . انهم لا يريدون الا أن يحكموا أنفسهم فقد عانوا ما فيه الكفاية من الحكم الأجنبى .

والسؤال الآن : هل تستبدل مصر الاستعمار البريطانى بالشيوعية الروسية ؟ وهل تستبدل مصر بعد ٢٥٠٠ سنة من السيطرة الأجنبية الشيوعية الروسية باستقلالها التام الحديث وسيادتها القومية . ان الشيوعية لا تعنى فى أى مكان فى افريقية الا السيطرة الأجنبية . وقد يبدو أن وعى المصريين مصحوب بكره أصيل للاستعمار البريطانى بالذات . ولكن أى قوة أخرى يمكن أن تمارس نفس هذا الاستعمار ومن ثم نستطيع أن نقول : ان مصر ضد الاستعمار أيا كان مصدره ، انها تنشد صداقة الولايات المتحدة ولكنها لا تريد أن تقترب منها أكثر من اللازم لكيلا تفقد استقلالها التام . انها تريد أن تساير لندن ولكنها تخشى عودة الاستعمار البريطانى . انها تود أن تصادق موسكو ولكن نفس هذا الخوف يكمن فى أحاسيسها القومية . انها تريد أن تكون سيدة نفسها فهى ترفض تلقى الأوامر من أية دولة أخرى . وقد أظهرت ذلك فى أزمة قنال السويس منذ لحظة تأميمها وخلال العدوان البريطانى الفرنسى العسكرى عليها .

ولكن قد يعترض البعض بأن مصر تعتنق الشيوعية فجزء كبير من تجارتها الخارجية مع روسيا وتشيكوسلوفاكيا والصين الشيوعية . ولكن لنذكر أولا أن مصر تريد أن تحيا وستتجر مع أية دولة تشجعها على ذلك ومن العدل أن نقول ان الضغط الاقتصادى الغربى على مصر هو الذى

جعلها تبحث عن أســواق فى أماكن أخــرى . وعندما انسحبت شركة قنال السويس القديمة من القنال فى سنة ١٩٥٦ مثلا وجدت مصر نفسها مضطرة لاستجلاب مرشدين من روسيا وتشيكوسلوفاكيا وبلاد أخرى لأنها شيوعية بالضرورة ولكن لأنها كانت محتاجة الى هذه الخدمات مهما كان مصدرها . ويظهر أن الغرب اتبع السياسة الخاطئة فى محاولته جعل مصر تجثو على ركبتيها . وكان طبيعيا أن تبذل مصر كل جهدها حتى لا يتحقق ذلك . ولعلنا نستطيع أن نستخلص ذلك أنه ما دامت مصر ترفض الانتماء للغرب فهناك احتمال كبير فى ألا تنتمى لروسيا وكان جمال عبد الناصر هو الذى قال :

« لن تتفشى الشيوعية فى أى جزء من الشرق الأوسط وافريقية اذا اتبعت الولايات المتحدة سياسة شجاعة — — ليس أصعب منها أخلاقيا — وهى سياسة مساندة أولئك الذين يتوقون الى التخلص من الســيطرة والاستغلال الأجنبى . وسيكون الاستقلال الحقيقى أعظم تحصين ضد الشيوعية أو أى نوع آخر من التغلغل أو العدوان . ذلك أن الأحــرار أكثر المدافعين تعصبا فى الدفاع عن حريتهم وهم لا ينسون أبدا أولئك الذين ساندوهم فى كفاحهم من أجل الاستقلال » .

ويعلق « جيرالد سيارو » فى كتابه « أبو الهول يستيقظ » على موقف عبد الناصر من الشيوعية فيقول « ان عبد الناصر صادق فى قوله ان مصر لن تصبح شيوعية ، فالأفكار الشيوعية المبنية على الحقد التى يفرضها حكم القوة لا تجتذب المصريين » .

ويقول جون جنتر عن علاقة مصر بالشيوعية « .. ان مصر تناهض الشيوعية بكل حزم فى الداخل فقد قضت على الحزب الشيوعى كما أن السلطات تعمل فى يقظة للقضاء على النشاط الشيوعى السرى » .

ويكتب السيد أنور السادات بكبرياء المصريين المعهودة فيقول « لقد أثبت الزمن والتجربة ان الاستبداد يشبه الفوضى فى أن كليهما ينتهى بتدمير القيم الحضارية العدل والأخلاق والمنطق ، فالدولة التى لا تهتم بمصالح رعاياها لا تصبح دولة ومن حق الجماهير أن تتصرف طبقا للقانون الطبيعى ومن حقهم أن يقاوموا الاستبداد والخيانة أو أى شىء يهدد كيان مجتمعهم . فالشعوب هى التى تقيم الحكومات وترسم حدود سلطاتها . وقد فشل الزعماء المصريون السابقون فى أداء واجباتهم فانتقلت سلطتهم الى الشعب واستعاد الشعب سيادته » .

« لقد قام المصريون فى سنة ١٩٥٢ بما قام به الانجليز منذ ٣٠٠ سنة تحت قيادة كرومويل وبما قام به الأمريكيون سنة ١٧٧٦ والفرنسيون سنة ١٧٨٩ » .

وهذا النموذج للفكر المصرى والروح المصرية المعاصرة ان المصريين يقارنون أنفسهم بالانجليز والأمريكيين والفرنسيين الذين نالوا استقلالهم واحتفظوا به حتى يومنا هذا . ومن الصعب تصور أن المصريين وقد نالوا استقلالهم وكرامتهم وتخلصوا من نير بريطانيا يحنون رقابهم الآن حتى تضع عليها روسيا نيرها :

ولنعـد الآن الى شـمال افريقية . ولنبـدأ بمراكش . لقد قامت الامبراطورية المراكشية التى استمرت ١٢٠٠ سنة فى سنة ٧٨٨ ميلادية ، وأقام الفرنسيون سلطتهم فى مراكش سنة ١٩٠٢ . وبالرغم من ادعائهم أن احتـلالهم لمراكش كان فى الحقيقة لحماية دولة مستقلة لا لاستعمارها الا أنهم كانوا مع ذلك يمسكون بمقاليد الأمور . وكانت مراكش خاضعة للحكم العرفى الفرنسى منذ سنة ١٩١٤ (بعد أن أثبتت فرنسا شرعية حمايتها

لمراكش بسنتين) حتى سنة ١٩٥٥ حينما أصبحت مراكش دولة ذات سيادة عن طريق التدخل المباشر للأمم المتحدة .

وقد تخلص جهاد مراكش فى سبيل الاستقلال التام فى الحركة الوطنية التى قامت فى سنة ١٩٤٣ تحت اسم حزب « الاستقلال » . ومع وجـود حركات قومية أخرى سابقة لهذا التاريخ فان حركة حزب الاستقلال هى التى كان لها الأثر فى تحرير مراكش . وفى سنة ١٩٤٧ طالب سلطان مراكش حينذاك بكل حقوق مراكش كمحمية وفى سنة ١٩٥٠ زار السلطان باريس لنفس هذا الغرض وساد القلق البلاد . وفى فبراير سنة ١٩٥١ هدد المارشال جوان السلطان بالعزل ان لم يوقع على قرار بالغاء حزب الاستقلال وانتهى الطرفان الى حل وسط . وفى سنة ١٩٥٢ بينما كان السلطان يلقى خطاب العرش السنوى المعتاد مثنيا على الفرنسيين ألمح الى وجوب تخلى البلاد عن « ملابس الأطفال التى ترتديها » . وأغضب ذلك الفرنسيين بالطبع ولكنه سر القوميين .

وفى ديسمبر سـنة ١٩٥٢ قامت مظاهرات عديدة فى الدار البيضاء وتدخلت السلطات الفرنسية بسرعة البرق وحلت حزب الاستقلال الذى كان يعتمد عليه السلطان اعتمادا كبيرا . وفى أغسطس سنة ١٩٥٣ قامت اضطرابات وطنية أخرى فى وجده والدار البيضاء والمدن الأخـرى . وكالعادة تدخل الفرنسيون بسرعتهم القاسية المعهودة وعزل السلطان محمد الخامس وطاروا به دون ضجة الى جزيرة كورسيكا حيث ولد بونابارت الذى حكم أوربا ذات مرة . ولكن لاعتقادهم ان كورسيكا قريبة من مراكش طاروا بالسلطان فى ٢٥ يناير سنة ١٩٥٤ الى جزيرة مدغشقر رغبة منهم فى الاطمئنان . وتوج محمد بن عرفة ، الذى اختاره الفرنسيون

سلطانا لمراكش ولكن سلطاته كانت أقل من السلطات التى كان مسموحا لمحمد الخامس بممارستها .

الا أن حزب الاستقلال رغم الغائه وحرمانه من شخصية قوية كمحمد الخامس لم ييأس وتفشت الاغتيالات السياسية . وكان أساس نضال حزب الاستقلال أن مراكش لم تجر فيها انتخابات قومية وهى لا تتمتع بحريات مدنية كحرية الصحافة والقول والاجتماع ، وأن الفرنسيين يعمدون الى حرمان المراكشيين من التعليم ، وأنهم قد عقدوا العزم عـلى منع العمال المراكشيين من تكوين النقابات ، ولكن الذى ضايق المراكشيين فوق كل شىء هو أنهم شعب مستعمر واعتقادهم أنهم سيظلون كذلك ولقد روى عن أحـد المراكشيين أنه قال « سنخلق هنا جحيما حتى نحصل عـلى استقلالنا » ولم يعد النظام والسلام الى مراكش الا بعد أن أعيد السلطان محمد الخامس ومنحت مراكش استقلالها سنة ١٩٥٥ .

ويمكن أن يقال نفس هذا الكلام عن تونس وعن كل البلاد الافريقية المستقلة الأخـرى لكننا لن نتحدث عن كل هذه البلاد ، اذ أن الكفاح القومى من أجل الاستقلال فى كل افريقية باستثناء ليبيريا كانت له نفس الدوافع رغم أن الوسائل قد تختلف ، الا أن هناك نقطة يجب أن توضح وهى أن أى حركة قومية افريقية هى محاولة صادقة من جانب الافريقيين لتوطيد كيانهم الانسانى الذى حرمتهم منه السلطات الأجنبية . انهـا محاولة صادقة للتخلص من الحكم الأجنبى الذى يضعهم فى مركز حقير .

ولكن ما قيمة هذه الأمور بالنسبة لحديثنا عن العلاقة بين القومية الافريقية والشيوعية الروسية ؟ يجب أن نذكر منذ البداية أنه بينما تبدو الشعوب الافريقية المستعمرة فى الوقت الحاضر كما لو كانت تنفر من حكم البريطانيين والفرنسيين وغيرهم من الأوربيين انما تنفر فى الحقيقة من

الحكم الأجنبى فهى لا تكره الحكم لمجرد أنه انجليزى أو فرنسى ؛ بل لأنه أجنبى والكفاح الدائر فى افريقية الآن موجه ضد السيطرة الأجنبية التى كان الحكم الفرنسى والبريطانى بالصدفة هما التعبير العملى عنها . وحين يكف البريطانيون والفرنسيون عن أن يكونوا التجسيد الواقعى للحكم الأجنبى فسيتوقف الكفاح ضدهم تلقائيا ونذكر لمجرد المقارنة أنه فى الوقت الحاضر ليس هناك صراع شديد بين روسيا وافريقية كالصراع بين افريقية والدول الأوربية المختلفة . والسبب ليس صعب التفسير . فروسيا لا تمثل الحكم الأجنبى فى نظـر الافريقيين بينما تعتبر القوى الأوربية التعبير العملى لذلك الحكم .

ويمثل التخلص من الحكم الايطالى فى الحبشة والبريطانى فى مصر وساحل الذهب (غانا) والحكم الفرنسى فى مراكش وتونس نجاح هذه الدول فى طرد الحكم الأجنبى ولن يكون أى حكم أجنبى يأتى من الخارج الا شبيها بالحكم البريطانى والفرنسى أو الايطالى فى محاسنه أو مساوئه . وقد فضل ما كان يسمى « السودان المصرى الانجليزى » أن يستقل عن مصر بعد أن انتهى الحكم الثنائى المصرى — الانجليزى . ذلك أن الشعوب الافريقية ليست ضد الحكم الأجنبى يأتيها من خارج افريقية فحسب بل ومن داخل افريقية ذاتها . وتحب كل دولة افريقية أن تكون مستقلة عن الدول الافريقية الأخرى . تماما كما تحب انجلترا أن تكون مستقلة عن فرنسا وتحب فرنسا أن تكون مستقلة عن بريطانيا .

ومهما كانت مزايا الحكم الأجنبى فالحقيقة الراسخة هى أن روحه هى فرض ارادة الأجانب على الوطنيين . انه سلب حرية الشعوب الأخـرى ، والافريقيين يدركون هذا فقد أثرت فيهم دروس التاريخ القاسـية ، وما عانوه من اذلال تحت الحكم الأجنبى .

ولكن لنكن هنا واضحين مرة أخرى . ولنفرض أن افريقية قد اعتنقت الشيوعية الروسية فأى فائدة تجنيها . ان كان ثمة فوائد ؟ لقد اتفق معظم الافريقيين المتعلمين الذين ناقشت معهم هـذا الموضوع على أن الفرق الوحيـد سيكون هو « تبديل العنان » وسيظل الافريقى محـكوما بالأجانب . لقد كان دمية فى أيدى المستعمرين الأوربيين وسيصبح دمية فى أيدى الشيوعيين الروس . والسؤال ليس هو ما اذا كان الافريقيون يفضلون الاستعمار الأوربى على الشيوعية الروسية أم العكس . انهم لا يفضلون أيهما . بل يفضـلون أن يحكموا أنفسهم على أن يحكمهم الأجانب . وليس بين كل من تحدثنا معهم افريقى واحد فى هذه الدول الافريقية المستقلة ذات السيادة لا يستمسك بهذا الشعور القوى الذى أحسست به مرات ومرات وهو « أننا نريد أن نكون أنفسنا فاذا ما نجحنا سيكون الجزاء من نصيبنا لا من نصيب روسيا أو أوربا . أما اذا فشلنا فاننا نريد أن نستفيد من أخطائنا .

وسيوضح لنا ملخص صغير عن الوضـع فى افريقية التى يحكمها الأوربيون لماذا نعتقد أن التاريخ الافريقى ككل قد كيف الافريقى ضد الحكم الأجنبى ولماذا نعتقد أن هذه الحقيقة ستقف عقبة فى سبيل انتشار الشيوعية فى البلاد الافريقية . فقد عانى الافريقيون — كشعوب — ماديا وروحيا من الحكم الأجنبى وتاريخهم هو وثيقتهم الحية على ذلك .

ولنبدأ بافريقية الوسطى البريطانية . لقد عقد « سير سيسل رودس فى سنة ١٨٨٨ اتفاقا مع الملك لومينولا حصل بموجبه على حق استغلال المعادن والمناجم فيما أصبح الآن روديسيا الجنوبية . وفى سنة ١٨٩٣ أثار رودس ومن معه الميتابيلى عن عمد ودخلوا معهم فى حـرب جعلت من رودس المالك الوحيد للبلاد كلها . وسرقت شركة جنوب افريقية البريطانية

مواشى الميناييلى واستولت عليها وما زالت الميناييلى حتى الآن يتحدثون عن مواشيهم التى سرقتها « الكلاب البيض » وفى سنة ١٨٩٦ ثار الميناييلى والماشونا ضد الحكم البريطانى ولكنهم هزموا . وفى سنة ١٩٢٣ انتهت ادارة شركة جنوب افريقية البريطانية لما يسمى الآن روديسيا الجنوبية ، وضم الى أملاك التاج البريطانى . ومنذ سنة ١٨٩٣ حتى يومنا هذا (١٩٥٧) تعرض الافريقيون لقوانين التفرقة المذلة القاسية وان تكن قد تمت بعض التحسينات هنا وهناك خلال السنين الطويلة .

وقد احتل البريطانيون روديسيا الشمالية فى نفس الوقت الذى احتلوا فيه روديسيا الجنوبية ولكن دون أن يستخدموا قوة السلاح قط . فقد عقد زعماؤها المعاهدات مع الملكة فيكتوريا ومن ثم فان الوطنيين فى روديسيا الشمالية حينما طلبوا الحماية البريطانية مختارين طلبوا عن غير قصد سيطرة البريطانيين كذلك . فالحماية دون سيطرة تكاد تكون مستحيلة والآن وقد تنبه المؤتمر الوطنى الافريقى الى فكرة الحرية والاستقلال التام ، لن تنزل الحكومة البريطانية عن الحماية التى وعدت الملكة فيكتوريا رؤساء القبائل بها . وقد تعرض السير « هارى نكمبولا » رئيس المؤتمر وبعض الأعضاء الآخرين للسجن لأنهم طالبوا بالحرية الافريقية وحق تقرير المصير . ويعمل اتحاد عمال المناجم الافريقيين فى روديسيا الشمالية الذى أنشىء فى سنة ١٩٤٩ تحت عراقيل ضخمة وضعتها الحكومة فى طريقه عن قصد . وقد ترك الحاجز اللونى فى الصناعة الذى ابتكره الأوربيين الاتحاد غير ذى أثر . وبالاختصار فان الافريقى فى روديسيا الشمالية كزميله فى روديسيا الجنوبية مواطن ذليل محتقر فى مسقط رأسه .

وعندما ظهر مشروع اتحاد روديسيا ونياسلاند عارضه كل أهل نياسلاند

تقريبا كذلك عارضه الرئيس فيليب جومانى ونحو ثمانين من رؤساء القبائل الآخرين معارضة شديدة ولكن الحكومة ضربت برغبات الوطنيين عرض الحائط . فأعلنت حالة الطوارىء وقبض على عدد من رؤساء القبائل . وبعد أن تم لها ذلك فرض الاتحاد على نياسلاند . وحتى الآن لم يقبل أهل نياسلاند الاتحاد فقد كان المهم أن تصبح نياسلاند فى يولية سنة ١٩٥٧ دولة حرة مستقلة تحت قيادة المؤتمر الافريقى الوطنى لنياسلاند برئاسة الرئيس ج . س . سنجالا . ولكن الأحداث حطمت هذه الآمال .

وقد رأينا فى هذه الدول الثلاث التى تناولناها بالبحث كيف فرضت رغبات البريطانيين على الشعوب لا بالسياسة الماكرة فحسب بل وبالقوة العسكرية والقمع . وكيف يتغاضى عن رغبات الشعوب الافريقية عندما تتعارض مع رغبات البريطانيين . وليس رؤساء القبائل الافريقيون سوى دمى فى أيدى البريطانيين . ولكن أية دولة أوربية كانت ستفعل مثـل ما يفعله البريطانيون .

وتظهر فى افريقية الشرقية البريطانية نفس الاتجاهات . لقـد كانت تنجانيقا مستعمرة ألمانية منذ سنة ١٨٨٠ حتى الحرب العالمية الأولى . وفى سـنة ١٨٩٨ انتحر الرئيس « كاوا » حتى لا يقع أسيرا فى أيدى الألمان الذين كانوا يحاولون اخضاع كل القبائل الافريقية . كما قامت ثورة الماجى ماجى ضد الألمان فيما بين سنة ١٩٠٣ وسنة ١٩٠٥ وكانت قبيلة انجونى فى تنجانيقا الجنوبية أهم القبائل المحرضة على الثورة ، وقد قاومت السيطرة الأجنبية ولكن الألمان بما عرف عنهم من مهارة فى القتل تمكنوا من قمع الثورة وفتكوا فى وحشية بحياة ١٢٠٫٠٠٠ افريقى . وفى الفترة من ١٩١٤ الى ١٩١٨ غـزا البريطانيون تنجانيقا وانتهت بذلك الحماية الألمانية . وتريد بريطانيا الآن وضع تنجانيقا تحت وصاية الأمم

المتحدة [1] . وفى سنة ١٩٥٥ تحدث تقرير الوصاية عن امكان حصول تنجانيقا على الاستقلال فى هذا الجيل . وقد أغضب ذلك البريطانيين الذين كانوا يؤكدون أنها غير مستعدة بعد للاستقلال .

وأوغنده هى البلد الثانى فى افريقية الشرقية البريطانية . لقد احتل البريطانيون أوغندا فى سنة ١٨٩٣ وبعد سبع سنوات وقعت أوغندا كلها فى أيدى البريطانيين لا بقوة السلاح ، ولكن عن طريق اتفاقية أوغندا فى سنة ١٩٠٠ . ولقد كانت أوغندا بلدا مسالما نسبيا . ولكن المؤتمر الوطنى الافريقى لأوغندا الذى يعارض السياسة البريطانية « فرق تسد » يعارض بشدة هجـرة الأوربيين الى أوغنـدا خشية أن تصبح كينيا أو روديسيا جنوبية أخرى (بها مستوطنون بيض أقوياء وسياسة كبت للوطنيين) ويريد الوطنيون أن تبقى أوغندا بلد الرجل الأسود . ويريدون نفس الاستقلال التام الذى يتمتع به السودان [2] الآن (السودان المصرى الانجليزى سابقا) .

وتعبر أزمة الكاباكا فى أوغندا أصدق تعبير عن نظرة الافريقيين بعامة الى الحكم الأجنبى . وعندما قال أوليفر ليتلتون وزير المستعمرات فى لندن قولا عابرا « ان أوغندا وكينيا وتنجانيقا قد تنضم فى اتحاد » شك كاباكا بوغندا فى أن الحكومة البريطانية تنوى فرض اتحاد ضد رغبات الشعوب كما فعلت فى نياسلاند . ومن ثم أرادت الكاباكا أن تفصل بوغندا عن أوغندا أى عن وزارة المستعمرات حتى لا يحدث لها ما قد يحدث لأوغندا اذا ما اتحدت مـع كينيا وتنجانيقا . وحينما حاول الحـاكم السـير « اندروكوجن » أن يقوم ببعض الاصلاحات فى كل من أوغندا بما فيهـا

---

(١) حصلت تنجانيقا على استقلالها فى سنة ١٩٦٢ .
(٢) حصلت أوغندا على استقلالها فى أواخر سنة ١٩٦٢ .

بوجنـــدا فسر الكاباكا هذه الاجــراءات بأنها محاولات سرية لفرض الاتحاد ، وفى يونية ١٩٥٣ عارض هذه الاصلاحات علانية . واعتبر الحاكم ذلك دليلا على عدم الولاء . وفى نوفمبر من نفس السنة خلع الكاباكا وطير به الى لندن . وهكذا وضح وضوحا تاما أن مركز الحاكم البريطانى أعلى من مركز ملك افريقى ، وان الملك الافريقى تحت الحماية البريطانية ليس سوى دمية فى يد الحاكم البريطانى . الا أن الكاباكا أعيــد الى مركزه السابق فى سنة ١٩٥٥ ولكن الدرس كان قد اتضح وهو أن الاستقلال مع الحماية ليس الا مجرد تمويه وأن الحكم الذاتى وحــده هو الذى يحفظ للشعوب كرامتها .

وسيكون من الممل أن نقص تاريخ كينيا باختصار فهو الى حد كبير يسير فى نفس الاتجاه الموجود فى المستعمرات البريطانية الأخرى . ولذلك فسنتحدث الآن عن الكونغو البلجيكى وغرضنا هنا أيضا هو أن نظهر أن الافريقى يعرف متاعب الخضوع للحكم الأجنبى .

بعد مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤ — ١٨٨٥ أصبح حوض الكونغو ملكا شخصيا للملك ليوبولد الأول ملك بلجيكا . والذى حكم منذ سنة ١٨٨٥ حتى سنة ١٩٠٨ حيث نقلت ملكيته الى الحكومة البلجيكية . ولن نتوقف هنا لنتحدث عن « فظائع الكونغو » المعروفة ولكن مما يستحق أن يذكر أنه أثناء حكم الملك ليوبولد قتل التجار والاداريون البلجيكيون الذين كانوا يبحثون عن العاج والمطاط ما بين ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ و ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ أفريقى اذ كان الذين يعجزون عن احضار حصة المطاط المطلوبة يشوهون تشويها قبيحا فكانت تقطع أيديهم أحيانا وأقدامهم أحيــانا أخــرى . ولم يكن هذا التشويه وسيلة افريقية بل كان وسيلة أوربية بحتة . وربما

كانت المقتطفات التالية أوضح تصويرا للوضع من أى كلام نذكره وهى من كتاب « ليوبولد المكروه » لمؤلفه لودفيج بادر .

« ان س . س . كركهوفن سيأتى هابطا فى النيل وسيطلب ١٫٥٠٠ حمال يا لهؤلاء العبيد التعساء ! اننى لا أستطيع مجرد التفكير فيهم . وما زلت أسائل نفسى كيف سأتمكن من الحصول على هذا العـدد الضخم .. مفاجع ، وجوع ، وانهاك . كم من الدمـاء ستراق من أجل هذا النقل ! ولقد اضطررت الى أن أحارب رؤساء القبائل الذين رفضوا أن يساعدونى فى الحصول على الرجال الذين احتاج اليهم ثلاث مرات حتى الآن . ان الرجال يفضلون أن يموتوا فى غاباتهم على أن يموتوا كأفراد فى قافلة نقل . واذا رفض رئيس القبيلة فان ذلك معناه الحرب بين الأسلحة النارية الحديثة فى جانب والرماح والحراب فى جانب آخر .

« لقد اختفى السكان وأحرقت مساكنهم فحالت أكواما ضخمة من الرماد وسط أسوار من النخيل مهملة وحقول خربة مهجورة .. الجلد بوحشية والقتل .. والاغارة والسطو » .

كل هـذه الأشياء فعلتها الشعوب التى تسمى بالمتحضرة ضـد ما يسمونهم الافريقيين المتوحشين ! . الا أن الأمور قد اختلفت منذ أن حلت الحكومة البلجيكية محل نظام الملك ليوبولد ، ولكن ذكرى هذه الوحشية الأوربية ما زالت عند كثير من الافريقيين وهى تنتقل من جيل الى جيل .

ونستطيع الآن أن نتساءل : ما الدلالة الحقيقية لهذه المسائل التى ذكرناها ؟ . لقد عانى الرجل الأسود فى كل افريقية التى يحكمها الأوربيون اذلالا لا مثيل له (وهناك معنى لما يعانيه شعب يحكم نفسه ، ولكن هناك أيضا معنى لما يعانيه تحت الحكم الأجنبى ، والفرق أنه وهو يحكم نفسه

يعانى ما يعانيه محتفظا بكرامته ، ولكنه تحت الحكم الأجنبى يعانيه مع اذلال سفروض) . وكانت حياة الافريقى فى نظر الأوربيين وبخاصة فى الأيام الأولى لاحتلال الأوربيين لافريقية لا تزيد قيمتها كثيرا عن حياة الحيوانات المتوحشة ، وقد مر الافريقى بتجربة جماعية للحكم الأجنبى من الكاب الى القاهرة ومن القرن الافريقى فى الشرق الى النتوء الافريقى فى الغرب . وهذه التجربة الجماعية هى أهم عامل يقف فى سبيل انتشار الشيوعية فى افريقية ، فالافريقى سواء أكان متعلما أم غير متعلم لا تختلف عنده القوى الأوربية الحالية عن روسيا فكلها قوى أجنبية . والروس يضارعون الفرنسيين والبلجيكيين والبريطانيين وكل الجنسيات الأوربية الأخرى فى البياض . كما أنهم لا يقلون عنهم فى الطموح . صحيح أن الشيوعيين يعدون الشعوب المحكومة بالحرية والاستقلال ولكنه صحيح أيضا أن الشيوعية تستهدف السيطرة على العالم أجمع . وهـذا يعنى اخضاع الافريقيين كذلك . والافريقى العاقل يدرك ذلك . وهو اذ يعاون روسيا انما يساعدها على اخضاعه ويصدق نفس الشىء عليه حين يساند الحكم الأوروبى الحالى .

وقد تعلم الافريقى كثيرا من التاريخ . فقد احتل الفرنسيون افريقية الشمالية والغربية والاستوائية باسم الحماية ولكن هذه تطورت فأصبحت سيطرة مهينة . واحتل البريطانيون وسط وشرق وغرب افريقيا باسـم الحماية التى تطورت بدورها فأصبحت سيطرة مهينة . واحتل البرتغاليون موزنبيق وانجولا باسم الحماية ولكن هذه أيضا أصبحت سيطرة مهينة . واحتل البلجيكيون ما كان يعرف باسم الكونجو البلجيكى ولكن ذلك أيضا أصبح سيطرة مهينة ولا يحتاج الأمر لأى خيال لنعرف أنه اذا احتلت روسيا أى جزء من افريقية فسيصبح ذلك أيضا سيطرة مهينة . وكما يقول

الافريقى المتعلم « الحكم الأجنبى هو الحكم الأجنبى » وهو يعنى بذلك انه من المهين أن يحكمك أجانب . فليس للحكم الأجنبى فى نظر الشعوب المحكومة معنى غير الاذلال ، ولا يراه الحكام الأجانب الا سيادة سياسية .

ومن هنا يتضح لنا أن القــوى الاستعمارية الحالية لو لم تستعمر افريقية لما وجدت الشيوعية طريقها ميسورا الى قلب افريقية . اذ أن الافريقى لن يكون قد مر بتجربة الحكم الأجنبى ولما نمت عنده حاسة التمييز التى يحكم بها على وعود الشيوعيين الجذابة . ولسقط فريسة للشيوعية كما حــدث له مع الاستعمار الأوربى . ولحسن الحظ أن الاستعمار الأوربى جاء مبكرا عن الشيوعية ذلك أنه اذ نفر الافريقيين منه . نفروا من الشيوعية كذلك .

وهكذا يبدو أن العناية الالهية قد رأت عبر دهاليز الزمان والمكان الطويلة تقدم الشيوعية فسارعت فى القرن التاسع عشر بارسال القوى الاستعمارية الى افريقية لتحض كل الشعوب الافريقية ضد الشيوعية فأكسبت الافريقى مناعة ضد جرثومة الشيوعية التى تهدد الحرية بالفناء . ونعتقد أننا على حق أن نقول انه قد تكون لدى الشعوب الافريقية عامة قدر كاف من المقاومة للشيوعية سواء أحسوا بذلك أم لم يحسوا . ولكن هذا لا يعتبر بحال من الأحوال دليلا على أن كل الشعوب الافريقية محمية من الشيوعية . وما نحاول هنا الا أن نظهر العوامل التى تفسر سبب معارضة الافريقيين المتعلمين الذين بيدهم الآن مقاليد السياسة الافريقية هــذه المعارضة الشديدة للشيوعية . ونعتقد أن الافريقى المتعلم الأبله هو وحده الذى يقبل استبدال الشيوعية الروسية بالاستعمار الأوربى الحــالى وجدير به أن يبقى حيث هو فى ظل الاستعمار الأوربى يمص ابهامه فى هدوء .

ولكن الافريقى كما سبق أن قلنا قد يتجه الى الشيوعية كاجراء يائس . وقد يستغل الشيوعية كأداة للحصول على استقلاله التام (رغم أنها أداة فى غاية الخطورة) ولكن هذا مجرد افتراض . وحتى الآن لا نعرف حالة واحدة اتحدت فيها جماعة من الافريقيين ونظمت حزبا شيوعيا . وقد قيل عن معركة الماو ماه أنها مستوحاة من الشيوعية وقبل هذا التعليق بسبب الجهل والشك من ناحية وقالها البيض كوسيلة لاستجلاب العطف من ناحية أخرى . ولم تكن الحركة كلها الا من وحى الكيكريو . ويعزز ذلك قول ولبانك فى كتابه « افريقية المعاصرة » .

« ليس هناك أى دليل على أن الشيوعية أو عملاءها كان لهم أى دخل سواء عن طريق مباشر أو غير مباشر فى تنظيم حركة الماو ماو أو توجيهها أو نشاطها . وقد زار جوموكينياتا رئيس الحركة موسكو قبل سنة ١٩٤٧ ولكن ليست هناك أى أساليب شيوعية فى تنظيم الحركة ونشاطها ، بل هى حركة افريقية .. » .

ومن الطريف أن نلاحظ أنه حتى الماو ماو لم يكن لها أى صلة بالشيوعية . وقد حلت حكومة غانا الحزب الشيوعى رغم أنه يتمتع فى كل من بريطانيا وفرنسا والهند بالاعتراف الرسمى . كما قال أحد الطلبة الغانيين « ان الحزب الشيوعى يمثل حكما أجنبيا يرمى الى اخضاع العالم . ونحن لن نقبل أى شىء من هذا » .

ويبدو أن افريقية قد تحصنت ضد الشيوعية . فكل القوى الأوربية والشعوب الافريقية قد كيفت نفسها للوقوف ضدها . وقد تشبعت افريقية عامة بالغرب فى الاقتصاد والسياسة والاجتماع والنظم والتعليم اذ الواقع أن أغلب الافريقيين الذين حصلوا على تعليم عال انما حصلوا على تعليم غربى وترويس (جعلها روسية) افريقية أمر قريب أو بعيد

الاحتمال ولكنه ليس أمرا واقعا ، بينما جعلها غربية حقيقية واقعة لهـا جذور تاريخية . وحتى الآن لا يزال آلاف الطلبة الافريقيين يتلقون تعليمهم فى الخارج ، يتلقونه فى جامعات بريطانيا وغرب أوربا وأمريكا . ويتكلم ملايين الافريقيين الانجليزية والفرنسية والبرتغالية والأسبانية ولا يتكلم أحدهم الروسية . وما نحاول أن نوضحه هنا هو أن هناك فعلا عوامل مشتركة بين افريقية والغرب . وأن هذه العوامل المشتركة مبنية على مصالح عملية ، وهذا هو الذى يجعلنا نعتقد أن الأوربيين اذا ما توقفوا عن معاملة الافريقيين كغرباء فى أوطانهم ، فسيقوم نوع من التفاهم الحقيقى بين السـود والبيض وسيساعد ذلك بدوره على تقوية القـوى المناهضة للشيوعية .

وفى بحثنا هذا لم نجد أية علاقة بين القومية الافريقية والشيوعية الروسية فالقومية الافريقية تنبثق من داخل افريقية وليس من موسكو . واذا استطاع الافريقى أن يستمر فى كراهيته للشيوعية من كل قلبه كما يكره الاستعمار الأوربى فذلك خير له . لأن تفضيل نوع من الاستعمار على نوع آخر هو منتهى الحماقة وسوء التقدير القاتل . ولن تستطيع افريقية أن تحصل من الشيوعية على خير أقل أو أكثر مما حصلت عليه من الاستعمار الأوربى . فمصلحتها الحقيقية ليست فى تفضيل واحد عن الآخر بل فى نبذ كليهما لأنها تحت حكم أيهما ستستمر تشغل مركز التابع وستعانى من التحقير الذى يلازم هذا المركز .

الفصل العاشر
الأسطورة المتداعية

حينما كنت أفكر فى عنوان مناسب لهذا الفصل ، قفزت الى ذهنى عدة عناوين . كان أولها « الأسطورة المتفجرة » . ولكن هذا العنوان لم يكن يعبر بدقة عن الفكرة التى فى خاطرى « فالانفجار » مفاجىء وصاخب ولكنه سرعان ما ينتهى — كذلك ينقصــه الاستمرار الذى قد يقاس بالسنين . انه يجيء ويذهب . ثم فكرنا فى عنوان آخر مناسب هو « حصار القلعة » ولكننا لم نرتح اليه أيضا لأنه يوحى بفكرة جيش منظم للغاية يحاول الاستيلاء على غنيمة ، وهو يوحى بوجود تخطيط مدبر ، ومناورات واعية ، وعدوان مقصود ؛ فى حين أن ما نريد أن نصفه هنا ليس له خطة مرسومة . وأخيرا استقر رأينا على العنوان الحالى . وقد ارتحنا له لأنه يستبعد أى عنف متعمد ولأنه يظهر على أحسن وجه عملية دقيقة ولكنها فعالة بدرجات لا تحس تقريبا وتمتد لعدد من عشرات السنين . فعملية التداعى أشبه ما تكون بمراحل نمو النبات المختلفة التى لا يمكن أن نراها بأعيننا المجردة وان تكن ترى النمو الكامل به يظهر أولا شرخ صغير جدا لا يرى ولا يسترعى الانتباه . ثم يأتى بعد ذلك شرخ صغير يرى لكنه أصغر من أن يسترعى انتباها . ثم يحدث ذلك النوع الذى يثير بعض الاهتمام . ثم يعقبه الشرخ الذى يثير اهتماما كبيرا . وأخيرا تحدث عملية التداعى الكاملة التى تسبب انهيار البنيان .

وقد أحاطت بافريقية أسطورة . وهذه الأسطورة تتداعى الآن . وقد

وصلت فى بعض المناطق الى آخر خطوة من خطوات انهيارها . وفى بعض المناطق ظهرت شروخ خطرة دون أن تنهار بينما تعانى فى بعض المناطق الأخرى شروخا لا يؤبه بها » .

وحينما اتصل الافريقى لأول مرة بالرجل الأبيض بهت وذهل وتعجب واحتار وبهر واختلطت عليه الأمور وأذهلته « بيوت الرجل الأبيض التى تتحرك على الماء » و « طيوره التى لا تشبه الطيور الأخرى » . وذلك « الوحش المهول الذى يلفظ النار والدخان ويبتلع الناس ثم يخرجهم أحياء » . وقدرة الرجل الأبيض على « قتل » انسان ثم بعثه من الموت (التخدير) وبيته الضخم الهائل الذى يحتوى على بيوت أخرى (وكان الميتابيلى يسمونه البيت الذى يضم عدة بيوت) والأشياء العديدة الجديدة الأخرى التى أدخلها . لقد زادت السيارات والعجلات البخارية والدراجات والحاكى والبرق والهاتف والملابس الغربية البراقة والطرق الحديثة للحرث والزرع من حب استطلاع الافريقى واحساسه بالحيرة . فلم ير الافريقى مثل تلك الأشياء من قبل أبدا . وكانت أعلى من مستوى ادراكه ، وخارج نطاق تجاربه ، فرأى وتعجب وفكر ، ارتجف لرؤية الرجل الأبيض الذى ارتفع مركزه الى السماء مخلفا وراءه الافريقى راكعا أمام هـذا الاله الأبيض الجديد الذى جاء من المحيط . وهكذا اتصل الافريقى بالآلهة التى تمشى على رجلين والتى اختارت أن تعيش بين الناس بدلا من أن تعيش بعيدا فى الجبال . ولأول مرة اتصل الافريقى بآلهة لها زوجات وأولاد وتربى الكلاب والقطط .

وأحس هؤلاء الآلهة البيض الجدد بسلطان سحرهم على الافريقيين وبذلوا كل جهدهم للاحتفاظ به . وكانوا يظهرون تحكمهم فى البرق باطلاق مدافعهم بانتظام . وكان ذلك يقع فى آذان الافريقيين كرعد فى

السماء . ولم يكن هناك شيء يفعله الرجل الأبيض الا وتظهر فيه سمات الآلهة . واتبع الافريقى الذى لا يناقش الآلهة خشية غضبهم عليه نفس الوسيلة فى معاملاته مع الرجل الأبيض . فقد كان الها بالنسبة له . والويل لمن يناقش الآلهة الجديدة الآتية من البحر . وهكذا أخضع الافريقيون أنفسهم لحكم الرجل الأبيض دون أى مناقشة . وأصبح الرجل الأبيض سيدا فى البيت الذى لم يكن يملكه . وأصدر أوامره للافريقى الذى كان على أتم استعداد لارضاء الاله الأبيض . وسر ذلك الرجل الأبيض وابتسم . وقال فى رضاء بالغ « افريقية جنة الرجل الأبيض » . وقد كان باستطاعة أى جنس بشرى آخر أن يفعل نفس الشيء فى نفس هذه الظروف .

ويذكرنا ذلك بالكابتن كوك الذى لعب دور الاله حين نزل هو وبحارته باحدى جزر هواوى ، حيث لم يسبق للوطنيين رؤية أى شخص يشبهه أو يشبه بحاريه . ولم يروا أو يسمعوا بندقية من قبل ، فخروا له ساجدين وعبدوه اعتقادا منهم أنه اله من السماء ومنحوه الحق الكامل فى معبدهم حيث نصبوه الها لهم . وكانوا فى غاية السعادة لأن الآلهة اختارتهم دون شعوب العالم أجمع لتزورهم . انهم هم القبيلة المختارة من الهواويين . وبمرور الوقت بدأ بعض الوطنيين الأذكياء يشكون فى وجه الاله الجديد ، اذ أن مظهره الخارجي كمظهر أى واحد منهم ثم انقسم الوطنيون الى فريقين . أولئك الذين آمنوا بأن الكابتن كوك اله حقيقى وأولئك الذين لم يروا فيه الا الها زائفا . ولم يكن أحد الفريقين على يقين من رأيه ، ايمانا أو كفرا لعدم وجـود البراهين العملية حتى كان يوم التقط فيه أحدهم — وكان أعلى ذكاء فيما يظهر — حجرا وأحكم تصويبه نحوه . وبكل قوته رمى به الكابتن كوك . وأحس الكابتن الشجاع بضربة الحجر وتلوى من الألم بينما وقف العالم الهواوى الذى لم يتعلم وصاح منتصرا

« انه يحس بالألم ومن ثم فهو ليس اله » . وثار الوطنيون الذين عبدوه ثورة عارمة . وأدركوا للتو أنه اله زائف وكالكلاب الجـائعة الغاضبة أمسكوا بتلابيب الههم . وهكذا مات دعى آخر من مدعى عرش الآلهة .

ومنذ البداية نظمت العلاقة بين الافريقيين والبيض وأحكم ضبطها . فأصدر الرجل الأبيض قوانين تحرم الزواج والمعاشرة بين السود والبيض . حتى يستمر مفعول السحر الأبيض الى أبعد حد يستفيد منه الرجـل الأبيض . وكان الموت هو عقاب خرق هذا القانون . ولكن ذلك لم يكن يطبق الا على الرجل الافريقى وحده . وبدا للافريقيين أن هذا القانون غير ضرورى وكانوا يتساءلون فى براءة « كيف يستطيع رجل أن يعاشر الهة » ويتعجبون « كيف تستطيع امرأة أن تعاشر اله » . وكانت كلمة « رجل » تعنى عنده الذكر الافريقى . وكلمة « امرأة » الأنثى الافريقية . أما الذكر والأنثى من البيض فكانا يحتلان عالما أسمى هو عالم الآلهة ، وأطلق الميتابيلى تلك القبيلة الشجاعة المحاربة التى خرجت على دولة الزولو على البيض لقب Omlimu abadla amabele ؛ أى الآلهـــة التى تأكل الغلال . فقد كانت الآلهة التى عرفها الميتابيلى لا تتناول أى طعام . ورغم أن الميتابيلى قد وضعوا هذا التمييز الا أن الاختلاف الوحيد الذى رأوه بين الآلهة التى عرفوها وبين هذه الالهـة البيضاء هو أن هؤلاء كانوا يعيشون على طعام حقيقى . وكان الميتابيلى يخشون فى الحياة الدنيا هذه الآلهة التى تأكل الغلال أكثر ما يخشون الآلهة الأخرى التى عرفوها . ذلك أن هــذه الآلهة البيضاء كانت قريبة ومرئية التصرفات بينما كانت الآلهة العادية بعيدة غير منظورة . لقد كانت العلاقات الأولى بين السود والبيض فى كثير من أجزاء افريقية علاقة الآلهة بالمخلوقات التى تعيش تحت رحمتها .

ووقف الافريقى مكتوف اليدين مشدوها فى انتظار ما تأمره به الآلهة البيضاء ، فقد كان يخشى التصرف حسبما يتراءى له حتى لا يجر على نفسه غضبها وانتقامها . فحفرت المناجم العميقة فى كل أنحاء البلاد . وأكد الديناميت الذى حطم الصخور الهائلة اعتقاد الافريقى بألوهية الرجل الأبيض وسرعان ما لاحظ الافريقى أن للرجل الأبيض « ثراء ماديا غير محدود » . وأن لديه القدرة على زيادته . وسرعان ما ربط بين القوة والثراء والمهارة والذكاء والحكمة والمعرفة وبين الرجل الأبيض . ومع أن الافريقى بطبيعته لا يحب البقاء بالقرب من مقر الآلهة التى لا يمكن التنبؤ بتصرفاتها والتى يشبه غضبها النار المحرقة ، الا أنه كان مضطرا للبقاء بالقرب من هذه الآلهة البيضاء التى كانت تطلب خدماته . وسرعان ما لاحظ أيضا أن شعبه تحول الى أمة من الخدم للرجل الأبيض . وكان كثير من هؤلاء والحق يقال يستمتعون بالبقاء الى الأبد فى منزل الههم . ومن ذا الذى لا يرحب بالعمل من أجل الآلهة ليتفادى غضبهم ؟ .

وبينما كان الافريقى يعترف لنفسه أن هناك فرقا واضحا بينه وبين الرجل الأبيض الا أنه سرعان ما أحس احساسا مبهما بأن هناك كثيرا من أوجه الشبه بينه وبين الرجل الأبيض . ولم يكن الميتابيلى مخطئين تماما حين أطلقوا على البيض اسم « الآلهة التى تأكل الغلال » . ففى فلسفة الميتابيلى أن كل من يأكل الغلال يموت . فحقيقة أكل الغلال هى حقيقة الفناء لمن تأكلها . ذلك أن الغلال نفسها توجد اليوم ولا توجد غدا . وباختصار أحس الميتابيلى دون وعى منهم أنه فيما وراء الرجل الأبيض يوجد unkulunkula ابن العظيم الأعظم الـ u Simakade أى الذى يوجد دائما فوقنا وأمامنا والذى أنشدوا له :

inkosi yasida bula ngamandla
ilensiba ezimnyama
Ezahlatshe lelwa ngaweva

« الله خلقنا بقوته

وله أجنحة سوداء مزينة بالشوك »

ولكن كيف يستطيعون التوفيق بين معتقداتهم الدينية هــذه وبين عجائب الرجل الأبيض الجديدة ؟ وانتصرت غريزة حب البقاء التى كانت تميل الى معاملة الرجل الأبيض كاله على الشكوك الدينية القوية انتصارا مؤقتا .

ومنذ احتلال الأوربيين لافريقية جاء وقت كانت البشرة البيضاء فيه هى كل ما يهم . وكانت تعتبر خطأ مصدر القوة والنجاح فى العــالم . ثم جاء وقت أحس فيه الافريقيين أنهم لو تسموا بأسماء أوربية فقد يضمن ذلك لهم النجاح فى الحياة . وتسمى الافريقيون الذين اعتنقوا المسيحية بأسماء غربية . وكيف يستطيعون أن يكونوا مسيحيين حقيقيين دون أن يتسموا بأسماء الانجيل ؟ كيف يمكن لهم التعامل مع الرجل الأبيض اذا كانت كل أسمائهم افريقية) وكان رعــاة الكنائس الافريقية والمبشرين بالانجيل يتطلبون من الافريقيين الذين يعتنقون المسيحية أن تكون لهم أسماء مسيحية . وكأن لب المسيحية وحقيقتها فى اسم مسيحى لا فى قلب الانسان . واستبدل بعض الافريقيين بأسمائهم أسماء أوربية . وهكذا أصبح « جوبولانى تنديل سيبذا الافريقى « جون فيليب براون » . وما زالت عملية اتخاذ أسماء أوربية شائعة فى بعض المناطق رغم أن الواقع قد تغير .

وكان التفسير النفسى لكل هــذا هو أن يربطوا أنفسهم بالمستعمر

ليحصلوا على عطف الآلهة وأصبح حمل اسم غير أوربى أمرا يدعو الى الخجل ، ووصمة اجتماعية ، ودليلا على التأخر . لقد كان للاسم الأوربى سحر أى سحر ، وبدا كما لو كان يفتح للافريقيين عوالم خيالية ، وكان كل ما له علاقة بالرجل الأبيض مليئا بالسحر مثله . وتوارى الأبطال السود حتى أصبح كل الأبطال لفترة ما من البيض . وعد كل رجل أبيض بطلا . وأصبح الرجل الأسود هو الشخصية الشريرة على مسرح الحياة . وهكذا احتل الرجـل الأبيض المسرح لفترة ما بينما وقف المتفرجون الســود مشدوهين يحملقون ويتعجبون من هذا المخلوق الجديد الذى بدا أن الله قد حباه بكل نعم الحياة . وأصبح الرجل الأبيض لفترة ما القطب الشمالى الذى يجتذب المعجبين الافريقيين المشحونين بالقوة المغناطيسية وســاعد هذا كثيرا فى بناء الأسطورة .

وبالرغم من مرور عشرون عاما فما زلت أذكر كما لو كان ذلك بالأمس حينما كان الطلبة الافريقيون فى روديسيا الجنوبية يشمئزون من التعلم على يد مدرس افريقى.. لقد كانوا يفضلون المدرس الأبيض على المدرس الأسود بصرف النظر عن أى شىء آخر . فقد كانت البشرة البيضاء تعنى حسن التعليم والبشرة السوداء سوء التعليم . وأذكر حادثة شخصية . فقد بكى بعض تلاميذى فعلا لأنهم منحوا مدرسا أسودا بدلا من مدرس أبيض . ولم يكونوا قد رأونى أعلم من قبل . وكانوا من الطلبة المستجدين ومع ذلك فقد حكموا على بأنى مدرس فاشل . ولماذا ؟ لأنى أسود وكفى ! وقد حكموا على المدرس الأبيض من قبل كذلك رغم أنهم لم يعرفوه . فماذا كان ميزان حكمهم ؟ لون البشرة ! فقد كان للبشرة البيضاء سحر حقيقى حتى بالنسبة للطلبة الافريقيين ولكن ذلك كله قد تغير الآن . فالطلبة الافريقيين اليوم يربطون المدرس الأسود الجاهل بالمدرس الأبيض الجاهل.

والمدرس الأسود الماهر بالمدرس الأبيض الماهر . بعد أن تقدموا وأدركوا أن لا علاقة بين قدرة المدرس وبين لون بشرته فأصبحوا الآن يحكمون على المدرس بقدرته على التدريس لا بلون بشرته . ولم يعد المدرس الأبيض يتمتع بأفضلية على المدرس الافريقى على أساس لون بشرته . وأى أفضلية يتمتع بها الآن انما تقوم على أساس المقدرة وحدها . ولم يعد المدرس الافريقى يعانى بسبب لون بشرته فهو الآن يتمتع بقدر من الاحترام أساسه المقدرة كزملائه البيض . وانتقل مركز الجاذبية من اللون الى المقدرة .

ان الزمن خير طبيب فهو يشفى الكثير ويوضح كثيرا من الأشياء . ويكشف عن عديد من الأمور ، ويفعل شتى الأفاعيل . ولا يستطيع الشتاء أن يفاخر بأنه يسيطر على العالم أجمع طوال الوقت اذ سرعان ما يأتى الصيف ليكذب هذا الادعاء . ولا يستطيع الصيف أن يتباهى على نفس هذه الأسس . وهكذا فان الرجل الأبيض لا يستطيع أن يقوم بدور الاله الا لفترة محدودة من الوقت لا الى الأبد . ويستطيع أن يبقى أسطورة أو لغزا ولكن لفترة محدودة . ولابد أن تظهر الشروخ فى الأسطورة هنا وهناك بمرور الزمن وسرعان ما اكتشف الافريقى أن الله قد خلق الرجل الأبيض ولم يخلق هو نفسه . وقد كانت هناك عوامل مختلفة لفتت نظر الافريقى الى هذه الحقيقة .

وسنبدأ بالمستوى العائلى فقد لاحظ الافريقى فى دهشة أن حياته العائلية كبيرة الشبه بحياة الرجل الأبيض . وحينما رأى الافريقى أن المرأة البيضاء تحمل كزوجته . وأن الرجل والمرأة من البيض يتشاجران أحيانا . وأن الرجال البيض قد يقتتلون بسبب امرأة بيضاء وأن الرجل الأبيض اذا غضب على زوجته رفض تناول الطعام الذى تقدمه له . وأن الرجال

والنساء البيض تتجعد وجـوههم وينحنون بتقدم السن . وان البيض يموتون أيضا . حينما رأى كل هذا تذكر تجاربه فى حياته العائلية وبدأ ينفذ عبر الأسطورة تدريجيا أو على حد قول بولص الرسول يرى رؤية غامضة لا وجها لوجه .

لقد مر وقت كان فيه كل المدرسين والمبشرين الدينيين ورؤساء الوزراء والمحامين والقضاة والمحلفين والأطباء والصحفيين ورجال الكنيسة ورجال الشرطة وسائقى القطارات والعـربات والجرارات ومفتشى البريد وتجار الجملة والتجزئة وأمثالهم كانوا جميعا من البيض . وفى هذا الوقت كان الرجل الأسود يلعن الله لأنه خلقه أسود اذ أصبح سواد البشرة بالنسبة له مرادفا للعجز والغباء والتأخر ، وفى هذا الوقت أيضا بدأ الافريقى ، بعد أن عرف أن الرجل الأبيض ليس الها بل انسانا مثله ؛ بدأ يتساءل عما اذا كان الطين الذى صنع منه جسمه الفانى هو نفس الطين الذى صنع منه جسم الرجل الأبيض . وحينما قال الدكتور أجرى من سـاحل الذهب (غانا الآن) « ان الرجل الذى لا يفخر بلونه لا يستحق الحياة » كان يحاول تصحيح هذا الشعور بالأسف والنقص الذى يحس به كثير من الافريقيين وظلت الأسطورة متماسكة يفتن بسحرها الافريقيين طالما بقيت المناصب المهمة مقصورة على البيض ولكنها بدأت تتداعى بظهور جيش من السود من المدرسين والمبشرين الدينيين ورؤساء الوزراء والمحامين والقضاة والمديرين والأطبـاء والصحفيين ورجال القلم والكتبة ورجال الشرطة وسائقى القطارات والعربات والجرارات ومفتشى البريد وتجار الجملة والتجزئة . ورأى الافريقى بأوضح مما رأى فى حياته من قبل أن ما يهم ليس هو كون الفرد أبيض أو أسود وانما هو حصوله على المهارة والمران اللازمين . ولم يعد السحر مركزا فى لون البشرة بل فى اكتساب

أعلى مراتب المهارة . ولا يزال مما ينتشى له الافريقى أن يعمل ما يعمل الرجل الأبيض . وتساعد الكفاءة الافريقية فى كل مكان على زيادة تداعى الأسطورة . ويدرك الأوربى المفكر ذلك ، ومن ثم يزداد تعاطفا مع الافريقى .

ومنذ نحو خمس عشرة سنة قال لى صديق أبيض فى روديسيا الجنوبية « .. سيقول .. من المجزى أن يحصل رجل أسود على تعليم عال ، ولكنه غير مجز للرجل الأبيض بنفس الدرجة » . وكان صديقى على ثقة من أن البشرة البيضاء فى روديسيا الجنوبية على الأقل كافية وحدها لضمان نجاح الرجل الأبيض . ولكن الأحداث فى روديسيا الجنوبية كذبت قوله اذ ظهر على المسرح الروديسى الآن أعضاء برلمان ومحامون ووكلاء محامين وكتاب افريقيون وراحت الأحداث تحطم الأسطورة البيضاء واحتلت المؤهلات والمقدرة مكان الصدارة ودفعت بلون بشرة الانسان الى المؤخرة .

وساعدت الحربان العالميتان الأولى والثانية على توسيع الشروخ فى الأسطورة فقد ذهب آلاف من الجنود الافريقيين الى الخارج للمشاركة الفعالة فى الحرب ولم تساعد فتيات الشارع الانجليزيات فى لندن ولا فتيات الشارع الفرنسيات فى باريس ولا فتيات الشارع الايطاليات فى نابولى فى المحافظة على كيان الأسطورة البيضاء كذلك قام الجنود البيض من السكارى ومغتصبى النساء بدورهم فى القضاء على هـذه الأسطورة . وأصدر القواد البيض أوامرهم الى الجنود الافريقيين بقتل جنود الأعداء البيض . ووجد الجنـود الافريقيون من روديسيا الشمالية وروديسيا الجنوبية ونياسلاند وتنجانيقا وكينيا وشمال أفريقا وافريقية الغربية الفرنسية وافريقيا الاستوائية الفرنسية وساحل الذهب ونيجريا . وجدوا أنفسهم فى الخطوط الأمامية للحرب لغرض واحد هو قتل كل جندى أبيض من

الأعداء تصل اليه أيديهم . وقد سقط كثير من الجنود الألمان والايطاليين صرعى رصاص أطلقه الجنود الافريقيون .

ورأى الجندى الافريقى الجنود البيض يصابون ويحتضرون ويموتون بالفعل . وكان أثر الرصاص واحدا فى البيض والسود على السواء فكان لذلك أثر نفسى قوى على الافريقى اذ رأى من اعتاد أن يراهم أفضل منه يعانون الهزيمة على أيدى الألمان واليابانيين فاقتنع مرة أخرى بأن المهم ليس هو بياض الفرد أو سواده ، وانما هو حصوله على المران اللازم فى هذه الأمور . وأخذت الحواجز بينه وبين الرجل الأبيض ترق حتى شفت حينا واختفت كلية فى بعض الأحيان . ولم يعد الافريقى بعد أن قاسى مع الجنود البيض جنبا الى جنب يستطيع أن يراهم على نفس الضوء . ولم يعد بعد أن أمضى أربع سنوات مطاردة الجنود الأعداء البيض ينظر اليهم أبدا كآلهة .

ولكننا نتساءل الآن ما علاقة ذلك بموضوع ظهور القومية الافريقية ؟ ان القومية الافريقية الناهضة تمثل من عدة أوجه الدرجة التى تضاءل اليها سحر الرجل الأبيض الذى خلب لب الافريقى فى أوائل القرن التاسع عشر . فطالما بقيت الأسطورة سميكة لا يمكن استشفافها كيف الافريقى نفسه قدر استطاعته مع من اعتقد أنهم آلهه . وان تكن آلهة تأكل الغلال . وطالما استطاع الرجـل الأبيض اقناع الافريقى بادعائه خاف الافريقى ولم يبد مقاومة للرجل الأبيض بوصفه حاكمه القومى . ولكن عهد المظاهر قد انتهى وحلت الحقيقة محله . ولكن قليلا من البيض فى افريقية هم الذين يعترفون بهذا التغير البالغ الأهمية . وما زال معظم البيض يحتفظ بصورة الافريقى الذى يعبد الرجل الأبيض كاله ويرفض تقبل حقيقته ، ان الزمن

يشير اليهم بالنزول من أبراجهم العاجية والحياة مع غيرهم من النــاس لصالحهم ولصالح غيرهم .

وهناك عدة حقائق أساسية يتناساها البيض الذين يودون أن يعتبرهم الافريقيون آلهة . لقد بهر جيل الافريقيين الذين اتصلوا بالرجل الأبيض لأول مرة بعجائبه وبالأشياء الحديثة التى أحضرها معه الى افريقية . ومن ثم كان من الطبيعى أن تفرد للرجل الأبيض مكانة خاصة فى افريقية . ولكن أغلب الجيــل الحالى من الافريقيين الذين ولدوا فى مستشفيات حديثة ونشأوا فى مدن وبلدان حديثة وتعلموا فى مدارس حديثة وسافروا بالبر والجو والبحر واستعملوا أكثر الوسائل حداثة ؛ وتعلموا الفنون والحرف الحديثة وعملوا فى المصانع والمناجم وغيرها من الأعمال الحديثة ؛ والذين يحتكون كل يوم بالبيض فى البلدان والمدن والمدارس وأرض المعركة أصبحوا فى الواقع ينظرون الى البيض نظرة عادية لا تختلف عن نظرتهم للافريقيين الآخرين لأنهم لا يعرفون أية بيئة أخرى . ولم يعد فى استطاعة الرجل الأبيض أن يسحرهم بالخــدع البسيطة كعرض قطار أو سيارة أو قراءة كتاب قصصى أو فرقعة بندقية أمامهم ؛ لأن كثيرا من الافريقيين الآن يستطيع فعل هذه الأشياء . ويؤلم الرجل الأبيض أن يعرف أن الافريقى يعتبره الآن انسانا عاديا . وهو يعتبر الجيل الافريقى الجديد جيلا منحلا كله لأنه لا يحترم الرجل الأبيض الاحترام الكافى لا لكونه انسانا بل لكونه أبيضا . وهذه هى مشكلة الرجل الأبيض فقد فشل فى أن يفرق بين ما كان وما هو كائن بصرف النظر عما سيكون فى السنوات القليلة القادمة . لقد فشل فى فهم ما حدث منــذ مجيئه الى افريقية .

وتثير هذه النقطة السؤال : الى أى مدى يحتفظ افريقى اليــوم

بافريقيته ؟ هناك اختلاف كبير للغاية بين افريقى ما قبل مجىء الرجـل الأبيض الى افريقية ، وافريقى ما بعد احتلال القوى الأوربية للقارة ومن ثم فهناك وجه لأن يكون الافريقى افريقيا ، ووجه لئلا يكون شأنه فى ذلك شأن أمريكى قضى ثلثى حياته فى افريقية ؛ فهو أمريكى وليس بأمريكى وهو افريقى وليس بافريقى . وبينما يحاول الغربيون عن قصد نشر الروح الغربية فى افريقية الا أن افريقية دون وعى منهم تنشر فيهم الروح الافريقية . وتنتج العلاقة المتبادلة بين الغرب وافريقية نوعا جديدا من الافريقيين بمعنى أنها تضع فى مؤخرة الصورة الافريقى الذى يعبد الرجل الأبيض وتضع فى مقدمة الصورة الافريقى الذى لا يعبد الرجل الأبيض . وقد يعتقد الافريقى المعتد بنفسه أنه افريقى ١٠٠٪ لأن كلا من أبيه وأمه افريقى تماما كما قد يعتقد الرجل الأبيض المعتد بنفسه المولود فى افريقية أنه أوربى ١٠٠٪ والحقيقة أنه لا يوجد فى المجتمع متعدد الأجناس شىء من هذه المائة فى المائة لا فى هذا الجنس أو ذاك .

ولنأخذ مثلا الافريقى الذى ذهب الى المدرسة ، فهو قد يعتقد أنه افريقى ١٠٠٪ وقد يكون ذلك صحيحا مظهريا وجسمانيا ولكن بفحص وعيه ولو على مستوى سطحى نجد أن تفـكيره الرياضى ، وتدريبه القـانونى ؛ وآرائه الدينيـة ومفاهيمه الصناعية والتجارية ونظرياته الاقتصادية وموضوعات أحاديثه وآماله وتطلعاته الحالية يختلف اختلافا جذريا عن وعى الافريقى الذى كان قبل مجىء القوى الأوربية . ولا نعنى بهذا أن هناك انفصالا تاما بين الافريقى المعاصر وبين أجداده . فنحن نعرف حق المعرفة أن هناك نوعا من الاستمرار التاريخى ولكننا نحس فى نفس الوقت بالانفصال الاقتصادى والسياسى والاجتماعى الواضح بين الافريقى المعاصر وأجداده ، كما لو كان للافريقى المعاصر أعين جـديدة ، فهو

يرى أشياء جديدة لم يرها من قبل ، وله آذان جديدة فهو يسمع أشياء جديدة لم يسمعها من قبل ، وله احساس جديد فهو يحس بأشياء لم يحسها من قبل . وهو لا يرى ما رآه أجداده ولا يسمع ما سمعه أجداده ولا يحس بما أحس به أجداده . وهو لا يرى أسطورة البيض التى رآها أجداده للسبب البسيط وهو أنه لم يعد من عدة وجوه نفس الافريقى الذى كان أجداده . انه ليس كأجداده . ولماذا ؟ . ذلك لأن أجداده عاشوا فى الفترة التى كانت فيها العربة ذات الحصان هى مقياس السرعة . بينما يعيش هو فى الفترة التى تقاس السرعة فيها بالكهرباء .

ولكن ما هى أوجه الخلاف الحقيقية بين الافريقى المعاصر وبين أجداده ؟ ان الرد بسيط . لقد كان أجداده يحسون احساسا ضئيلا بالبلد الذى يعيشون فيه ، ولم يحسوا بباقى افريقية . ومن المؤكد أنهم لم يحسوا بالبلاد خارج افريقية . وكان ذلك على الأخص ينطبق على الذين يعيشون فى الداخل ولكنه لم يكن بنفس الدرجة على الذين يعيشون على الساحل . لقد كانوا يقضون معظم وقتهم فى رعاية مواشيهم فى الصيد والقنص . ولعل مما يساعدنا هنا هو أن نصفهم بالسلبية . ان أعينهم لم تر قط المدن الكبيرة والبلدان التى ترتفع مبانيها الآن الى عنان السماء . ولم يركبوا الدراجات والسيارات والقطارات قط . ولم يسبق لهم أن طاروا بالطائرات ولم يذهبوا أبدا الى المدرسة أى أنه لم يسبق لهم أن تعلموا القراءة والكتابة ، ولم يبنوا لأنفسهم منازل حديثة قط أى أن عصرهم باختصار كان يتميز بعدم وجود التسهيلات والخدمات الحديثة ومن ثم كان الرجل الأبيض بالنسبة لهم أسطورة بحتة . وهذا يجعلنا ننظر للموضوع من زاوية جديدة حتى ليمكننا أن نقول بحق ان الأسطورة تعتمد فى وجودها على جهلنا . وفى اللحظة التى يمحى فيها هذا الجهل تمحى الأسطورة أيضا .

ومن ناحية أخرى نجد أن الافريقى الجديد فى كثير من الأحيان يعيش فى بيئة تختلف كلية عن البيئة التى عاش فيها أجداده . انه لا يحس بالبلد الذى يعيش فيه فحسب بل يحس بافريقية ككل . وبالعالم أجمع . وتؤثر القوى الدولية فى وعيه تأثيرا لم يعرفه أجداده قط . ويعيش الافريقى الجديد فى بيئة تختلف عن البيئة التى عاش فيها أجداده تلك البيئة المليئة بطنين النحل وغناء الطيور والتى تقلقها الحيوانات المتوحشة . والتى تسير وفق ما تشاء الطبيعة . ان الافريقى الجديد يعيش الآن فى بيئة يطغى فيها الطائر الميكانيكى على الطائر الطبيعى ، بيئة تفوقت فيها السيارات والقطارات والجرارات على الثور والحمار والحصان . انه يعيش فى الجو الذى عاشت فيه اسـطورة أجداده . ولو بعث أجداد الافريقيين ورأوا ذريتهم فى هذا المحيط الحديث فليس من المستبعد أن يخلطوا بين أولادهم وبين الآلهة .

والحديث عن النصف الثانى من القرن العشرين باعتباره عصر سقوط اسطورة الرجل الأبيض فى افريقية صحيح من عدة أوجه . ولو كان الأمر بيد الرجل الأبيض العادى لاعاد الافريقى الى أيام اسطورة البيض ولكن هذا مستحيل الآن . فقد خلق الزمن افريقيا جديدا يفرض نفسه ويحب مصلحته ، وهو أكثر تحفزا واعتمادا على نفسه من أجداده . ومن المستحيل اعادة هذا الافريقى الجديد الى رحم الزمن ، تماما كما لا يستطيع الطفل الذى خرج من رحم أمه أن يقوم بمحاولة ناجحة للعودة الى رحم الأم . ان هذا لايمكن الا أن يكون محاولة فاشلة . وعلى الطفل أن يكيف نفسه قدر استطاعته من الظروف خارج رحم الأم . ويحاول الافريقى نفسه أن يتكيف قدر الامكان مع الظروف الجديدة التى ولد فيها . ومن ينصحه بالتصرف حيال البيض — كما كان يشعر أجداده — كمن ينصحه بالعودة الى رحم

أمه . ويتقبل أغلب البيض المتعلفين هذا التغير الخطير ويواجهون الأحداث كما هى . ولا يضيعون الوقت فى التمنى . ولكن البيض فى مجموعهم يتصرفون كما لو كانوا آلهة أنزلت عن عروشها ، ان فردوسهم يأخذ طريقه الى الزوال مع ظهور الافريقى الجديد ولسوف يكافحون ما استطاعوا للابقاء عليه .

ويذكرنا الافريقى الواعى سـياسيا الآن بشخصية كاليبـان فى رواية العاصفة لشكسبير الذى ظن أن القادمين الجدد الى الجزيرة آلهة وأظهر ولاءه لهم فى الحال . ومن خلال كلماته نستطيع أن نعرف الأثر النفسى الذى أحدثه ستيفانوا ورفاقه فى كاليبان فى مقابلتهم الأولى معهم .

كاليبان : (جانبا) ان لم يكن هؤلاء أشباحا فهم أشياء جميلة . ان هذا الاله شجاع يحمل مشروبا سماويا . وسأركع له .

كاليبان : أحلف بهذه الزجاجة أن أكون عبدك المخلص فهذا المشروب ليس دنيويا .

كاليبان : سأطلعك على كل شىء خصب فى الجزيرة وسأقبل قدميك ، أتوسل اليك أن تكون الهى .

لقد آمن كاليبان بأن ستيفانوالقيم المخمور اله من السماء ولكن بعد أن كشف الزمن حقيقة هذا الاله الجديد . يدلى كاليبان باعترافه .

« سأكون حكيما من الآن فصاعدا . وسأطلب العطف . ألا ما أشد غباوتى أن أتخذ من هذا السكير الها ، وأن أعبد هذا المهرج الأبله » .

وقد مر وقت فى تاريخ الاستعمار الأوربى لافريقية كان الافريقيون فيه يعتمدون على الأوربيين لدرجة أنهم كانوا يحاربون بعضهم البعض فى سبيل ارضاء الرجل الأبيض . لقد كان المدرسون الافريقيون مثلا ، اذا ما لحق بهم ظلم من مصلحة التعليم الوطنى يخشون مجابهة المصلحة ، ويلجأون الى المبشرين العاطفين عليهم ، أو الى أى شخص آخر من البيض

الذن يهتمون بمصالحهم ليتحدثوا نيابة عنهم . وكان الساسة والزراع والتجار الافريقيون والجمعيات الافريقية المختلفة تلجأ الى نفس الوسيلة . من استخدام البيض لكى يدافعوا عنهم . كانوا يختارون خطيبا أبيضا ليواجه الحكومة البيضاء نيابة عنهم . ولكن كل هذا قد تغير الآن ، فقد نظم المدرسون الافريقيون أنفسهم فى جمعيات مختلفة للمدرسين الافريقيين ونظم الساسة الافريقيون أنفسهم فى المؤتمر الوطنى ، والفلاحــون فى جمعيات الفلاحين الافريقية . ورجال الأعمال فى جمعيات رجال الأعمــال الافريقيين .. وهكذا . والآن نجد الافريقيين ذوى المراكز هم أنفسهم الذين يكافحون من أجل تحسين حال شعوبهم ولم يعودوا يخشون الظهــور والتصريح بما يحسون ويعتقدون . لقد وصلوا الى قمة التجربة النفسية . وأخذ شـعور الافريقى الطفل بالاعتماد على الغير يتناقص ونمت روح الاستقلال فيه بسرعة .

ونستطيع أن تقارن العلاقة الأولى بين السود والبيض بالعــلاقة بين الطفل وأبيه فطالما اعتمد الطفل على ذويه ضمنوا بسهولة وفاءه وطاعته . وطالما بقى طفلا فهو يرى دائما شيئا أسطوريا فى أبويه . وحينما كانت زوجتى فى العاشرة من عمرها ولم تكن زوجتى آنذاك كانت تعتقد أن أمها امرأة رائعة لأنها استطاعت أن تربى أربعة أخوة وأختين . وحينما قالت لها أمها أنها هى الأخرى سوف تنجب يوما ما أطفالا كانت تقول : « كلا . مستحيل . فأنا لست مثلك » لقد كانت أمها دائما أسطورة بالنسبة لها . ولكن زوجتى أنجبت منذ ذلك الوقت خمسة أطفال وحين ذكرتها أمها بما اعتادت قوله ابتسمت فقط كما لو كانت تقول : « كان يجب أن أعــرف أحسن من ذلك » فهى طالما كانت جاهلة بحقائق الانجاب بقيت أمهــا أسطورة وكانت تمثل بالنسبة لها جدارا لا يمكن اختراقه . ولكن فى اللحظة التى عرفت فيها حقائق الانجاب تداعت الأسطورة واندثرت كلية الى غير رجعة .

وبمجرد أن عرف الافريقى كيف يقرأ ويكتب ، وكيف يقود ويصلح السيارة ، وكيف يبنى منزلا حديثا ويشيد الحيطان الحديثة . وكيف يعالج الجسم الانسانى وكيف يدير الأعمال ادارة حسنة . وكيف يفعل أشياء أخرى عديدة كان آلهته البيض يفعلونها تداعت الأسطورة الى غير عودة . وطالما جهل الافريقى هذه الأشياء بقيت الأسطورة قائمة لا يمكن تخطيها . والمطالبة بعودة الأسطورة كالمطالبة بعودة الجهل الشامل فى عالم يسوده التنور . ان مد الشئون الانسانية اليوم لا يسمح بوجود الأساطير سواء كانت سوداء أو بيضاء أو صفراء أو سمراء . فالمستشفيات الحديثة والعلم والتقنية تنسف الوجود الأسطورى للطبيب الساحر الافريقى ، وللرجل الأبيض بنفس الشكل ولن يستطيع الا الذين يسبحون مع المد لا ضده أن يأملوا فى أن يجدوا وزنا لهم فى افريقية المتعددة الأجناس .

ولكن مهما يكن من أمر فيجب أن يفهم قولنا على أننا نعنى أن كل الافريقيين قد خرجوا من المرحلة البدائية فالحقيقة أن أغلبهم لم يغفل ، ولكن الأقلية هى التى تهم فى كل الثورات وفى أى بلد نجد أن صوت الأقلية قد تسبب فى تغيرات لم يحلم بها ، والأقلية الافريقية من المتعلمين قوة لا يمكن تجاهلها دون حدوث نتائج وخيمة . وبينما لا تزال أغلبية الافريقيين هنا وهناك تعترف بأسطورة البيض أو تشك فيها فليس لدى الافريقى المتعلم وقت لذلك . فهى لا وجود لها عنده . وما يهم هو ما يعتقده الافريقى المتعلم وما يقوله اذ أنه هو الذى يتحدث الآن باسم شعبه .

ولكن بجانب تلك القوى التى وصفناها توجد قوى أخرى ساعدت على نسخ أسطورة الرجل الأبيض فى افريقية . فقد لعب وجود دول افريقية مستقلة ذات سيادة دورا هاما فى هذه العملية كلها . لقد مر بافريقية زمن كان يبدو فيه أن الحاكم الطبيعى لافريقية ليس الافريقى بل الرجل الأبيض .

الا أن التاريخ قد عكس ذلك الى حد ما . ويبدو الوضع الآن كما لو كان الرجل الأبيض ليس هو الآمر الحاكم الطبيعى لافريقية . وقد ساهم التخلص من الاستعمار الأوربى فى آسيا ، وموقف الأمم المتحدة الصارم من سياسة استخدام القوة . وقرار المحكمة العليا للولايات المتحدة بانهاء التفرقة العنصرية فى كل المدارس العامة وصوت الجمهورية العربية المتحدة ضد الاستعمار الأوربى لافريقية ساهم كل هذا فى القضاء على الأسطورة التى كانت رائجة فى كل أنحاء افريقية .

وجاء وقت كانت حجة الرجل الأبيض فيه هى : لقد احتاج الرجل الأبيض الى ألفى سنة ليصل الى المرحلة الحالية من الحضارة الغربية . وليس للافريقى الذى ليس له حضارة تذكر أن يطالب بالقبول التام فى هذه الحضارة قبل أن يقضى مدته . أى ألفى عام . واعتاد الافريقى أن يتقبل هذه الحجة فلم تكن لديه أى وسيلة لدحضها . وفجأة فطن الافريقى الى أنه حتى لو قبل اقتراح الألفى سنة الحسابى هذا ، فانه بعد انتهاء مدة مرانه هذه سيقول له الرجل الأبيض : « لقد احتاج الرجل الأبيض الى أربعة آلاف سنة ليصل الى هذه المرحلة » . ومن ثم فان الافريقى المفكر يرى فى عامل الوقت تصميم الرجل الأبيض على رفض مشاركته صور الحياة العادية .

وقد أصاب أحد الظرفاء الافريقيين لب الموضوع حين قال « اذا كانت الألفا سنة هى كل المطلوب فان الأمر سهل فقد احتجنا الى ألفى سنة لنصل الى ما نحن فيه الا اذا كان الرجل الأبيض يفترض أنه خلق قبلنا بألفى سنة .

وقد بدأ عامل الوقت الذى كان من أقوى العوامل التى يحتج بها الرجل الأبيض يفقد تأثيره على الافريقى لأنه اذا كان جنس ما قد احتاج

الى خمسمائة سنة ليبنى حضارة تفرض نفسها ، فان هذا لا يعنى أن على الجنس التالى أن يستغرق نفس المدة فكل جيل يقف على أكتاف الجيل السابق ومن ثم يستطيع أن يرى أبعد ممن سبقه . والا لما كان هناك شيء اسمه تطور الجنس البشرى . ولقد جعلت التسهيلات الحديثة عامل الوقت غير ذى معنى .

وقد تقبل الافريقى يوما ما حجة عامل الوقت . فقد كان البيض يشيرون مرارا وتكرارا وبطريقة مقنعة للغاية الى عدم وجود حضارة قوية للرجل الأسود ، والى أكواخه المستديرة المبنية من الطين والأغصان فى وسط افريقية وأكواخه المستديرة المبنية من الحشائش فى ناتال ، وشبه العرى الموجود فى كل أنحاء افريقية. وكان يقال له : انه بسبب هذه الأحوال المتأخرة ستمر عليه مئات السنين قبل أن يصل الى المستويات الغربية . وأهم شيء هنا هو أن الافريقى كان يصدق ذلك . ولكنه الآن يرى حجج الرجل الأبيض قد انهارت . فالأمهات الافريقيات الجاهلات ولدن أبناء أصبحوا كتابا . وربات الأكواخ المبنية من الطين ولدن ربات بيوت حديثة افريقيات . والأم التى ترتعد وتفر من صوت السيارة أنجبت الابن الذى يسوق التاكسى . والأم التى لم تبتعد عن قريتها أكثر من ٣٠ ميلا فى أى اتجاه لها ابن جاب العالم أجمع . والأم التى لا تتكلم الا لغة واحدة يتكلمها نصف مليون نسمة لها ابن أو ابنة يتكلم بلغة تتحدث بها عدة ملايين من الناس . وتعرف لغتين على الأقل غير لغتها الأصلية . وللملايين من الافريقيين المسيحيين أمهات غير مسيحيات . ويتأثر الافريقى أعظم الأثر اذ يعرف أن كثيرا من المدرسين والساسة قد ولدوا فى أكواخ من الطين وأن كثيرا من المحامين والأطباء الافريقيين كانوا من رعاة الماعز وأن معظم رجال الأعمال الافريقيين ينتمون الى هذه البيئة المتواضعة .

وكيف يستطيع الافريقى أن يتقبل الحجة القائلة بأنه يحتاج الى عدة قرون لكى يتحضر بينما هو يرى أمام عينيه افريقيين استطاعوا أن يختصروا ثلاثة قرون فى أنفسهم ؟ وكيف يؤمن بذلك وهو يرى رجلا كالدكتور كوامى نكروما الذى ولد فى كوخ من البوص لأب مزواج يقف على قمة النظام السياسى فى غانا ؟ ان الافريقى يؤمن الآن أكثر من أى وقت مضى بأن ما يهم ليس هو الجنس أو الدولة أو القبيلة أو حتى الأسرة . وانما هو فى نهاية الأمر نفسه سواء كان أسود اللون أو أبيضه .

ولأول مرة منذ احتلال الأوربيين لافريقية بدأ الافريقى يفهم حقيقة الحياة الأساسية وأن أسرة الانسان أو بيئته أو أصله قد يساعده بعض الشىء فى محاولة الوصول الى النجاح ولكن الشىء الحقيقى الذى يهم هو فى الفرد نفسه . انه عامل مجهول لا يمكن وصفه أو ادراكه بالنسبة لكل من الأبيض الحاقد والافريقى الذى يمتلكه . ويبدو أن هذا العامل المجهول هو الذى يتخطى المكان والزمان والثقافة والحضارة يضع أشخاصا ذوى مكانة اجتماعية ملحوظة فى مجـال الشئون الانسانية ذات الأهمية العظمى . ان هذا العامل المجهول هو الذى يمنح الرجل الذى نشأ فى كوخ من البوص فرصته أمام منافسه الذى نشأ فى قصر .

الفصل الحادي عشر

تحدى افريقية

اننا نعتذر للاقتباس الطويل ولكننا نحس أننا مضطرون لذلك حتى يظهر ما يحدث عندما لا يقابل التحدى المشروع بأمانة من القوى المقابلة . وقد وصف « جوموكينياتا » زعيم ثورة الماو ماو سنة ١٩٥٢ — ١٩٥٥ العلاقة بين الكيكويو والأوربيين فى كينيا فقال :

« تصادق فيل ورجل . وأرغمت عاصفة قوية الفيل على أن يأوى الى كوخ الرجل على حافة الغابة . واستقبل الفيل بحفاوة بالغة الا أنه سرعان ما طرد الرجل من كوخه واستولى عليه قائلا : يا صديقى العزيز ان جلدك أقوى من جلدى . والكوخ لا يتسع لكلينا وفى مقدورك أن تبقى فى المطر بينما أحمى أنا جلدى الرقيق من عاصفة البرد » .

وتنازع الفيل والرجل . وبلغ الأمر ملك الغابة ومن أجل النظام والسلام أكد الأسد للرجل المتذمر أنه سيشكل لجنة للتحقيق وقال « لقد أحسنت باقامة صداقة مع شعبى وبخاصة مع الفيل أحد وزراء دولتى المبجلين : فلا تتذمر أكثر من ذلك فانك لم تفقد كوخك بعد . انتظر حتى يجتمع مجلس الامبراطورى وستتاح لك عندئذ الفرصة كاملة لشرح قضيتك . وأنا متأكد أنك ستسر لرأى اللجنة » .

ثم شكلت اللجنة وكانت مكونة من (١) السيد كركدن (٢) السيد جاموس (٣) السيد تمساح (٤) والسيد المبجل ثعلب كرئيس للجنة (٥) والسيد فهد كسكرتير لها وطلب الرجل أن تضم اللجنة واحدا من

بنى جنسه ولكنهم أكدوا له أنه لا يوجد فى بنى جنسه شخص بلغ من التعليم ما يستطيع به فهم دقائق قانون الغابة . وان أعضاء اللجنة مختارون من عند الله وسيؤدون عملهم بمنتهى العدل » .

« وأدلى الفيل بأقواله « سادة الغابة المحترمين ليس هناك داع لتضييع وقتكم الثمين فى سرد القصة التى أعتقد أنكم جميعا تعرفونها . لقد كنت دائما أعتبر رعاية مصالح أصدقائى من واجبى ويبدو أن ذلك قد أدى الى سوء التفاهم بينى وبين صديقى هنا . فقد دعانى لانقاذ كوخه من أن يعصف به الأعصار . وبما أن الأعصار كان سيعصف بالكوخ بسبب فراغه . فقد وجدت من الضرورى لصالح صديقى أن أطور استغلال هذا الفراغ اقتصاديا بالجلوس فيه . وانى لمتأكد أن أى واحد منكم كان سيسارع بالقيام بنفس هذا الواجب فى ظروف مماثلة » .

وأعقب ذلك شهادة الرجل المضطربة وتمخضت اللجنة عن القـرار التالى : « فى رأينا أن هذا النزاع قد نشب بسبب سوء تفاهم مؤسف مرجعه تأخر أفكارك وترى اللجنة أن السيد الفيل قد قام بواجبه المقدس فى حماية مصالحك . ولما كان من الواضح أن مصلحتك هى فى استغلال هذا الفراغ استغلالا اقتصاديا . وبما أنك لم تصل بعد الى مرحلة التوسع التى تسمح لك بملئه نرى أن من واجبنا أن نجد حلا وسطا يرضى الطرفين. فيستمر السيد فيل فى شغل كوخك ولكننا سنسمح لك بأن تبحث عن موقع آخر تبنى فيه كوخا أكثر تلاؤما مع حاجتك وسنسهر نحن على حمايتك » .

وخوفا من تعرض الرجل لأنياب أعضاء اللجنة ومخالبهم قبل وبنى كوخا آخر وجاء السيد كركدن وشغله وجاءت لجنة أخرى للتحقيق . وأشارت عليه اللجنة بأن يبحث عن موضع جديد . واستمر هذا الحال الى أن حصل كل عضو فى اللجنة على كوخ على حساب الرجل . وأخيرا قال

الرجل اليائس لنفسه « ليس هناك ما يدب على الأرض ولا يمكن صيده .. (أى أنك تستطيع خداع الناس فترة ولكنك لا تستطيع خداعهم الى الأبد) .

ومن ثم بنى الرجل كوخا كبيرا وسرعان ما جاء نبلاء الغابة ليقيموا فيه . فحبسهم الرجل وأشعل النار فى الكوخ حتى قضوا جميعا وقفل الرجل أدراجه قائلا : « ان السلام غال ولكنه يستحق الثمن » .

ومن الطريف أن نلاحظ أن هذه القصة نشرت لأول مرة سنة ١٩٣٨ أى قبل ثورة الماو ماو فى سنة ١٩٥٢ — ١٩٥٥ بأربعة عشر عاما . وقد أشعل الماو ماو فى سنة ١٩٥٢ النار فى كينيا ليأسهم بعد أن فشلت عدة لجان تحقيق بريطانية فى ارضاء الكيكيو . ومن الطريف أيضا أن نعرف أن « جوموكينياتا » أهدى كتابه « فى مواجهة جبل كينيا » .

« الى مواجوا وامبوا وكل شباب افريقية المظلوم ليستمر مجتمعنا مع أرواح أجدادنا فى الكفاح من أجل الحرية الافريقية . وليغمرنا الايمان بأن الموتى والأحياء والذين لم يولدوا بعد سيستمرون فى اعادة بناء الأماكن المقدسة التى خربت » .

ومهما كان حكم التاريخ على « جوموكينياتا » سواء معه أو عليه فان الحقيقة الراسخة هى أنه هو الذى تجلت فيه روح الحرية والاستقلال الموجودة فى كل افريقية اليوم . فقد كافح من أجل أن يعامل الكيكويو كآدميين فى بلادهم الأصلية وقد فشلت كل الوسائل ولم يجد الكيكويو أمامهم الا طريق الثورة وكانت ثورة الماو ماو هى سبيلهم الوحيد .

ان ما نحاول أن نقوله هنا هو أنه اذا أقفلت أبواب الديمقراطية عن عمد فى وجه الافريقية فانهم سيجدون وسائل أخرى عنيفة .

وما زلت أذكر أحد البريطانيين وقد قال محتدا لأحد الساسة الافريقية

« انكم أيها الافريقيين لتدهشوننا ، انكم لم تطالبوا بهذه الأشياء قبل مجيء الرجل الأبيض الى افريقية . انكم لم تكونوا تفعلوا شيئا سوى النوم » .

فأجاب الافريقى : « ولكننا كنا نتمتع بنومنا » .

« وأنا أقترح أن تعودوا الى النوم وأن تتوقفوا عن سخافة الاستقلال الافريقى » . فقال الافريقى : « انك لا تستطيع أن تتمتع بالأمرين معا . فعليكم أن تتحملوا نتائج أعمالكم . لقد استيقظت افريقية ومستحيل أن تعود الى النوم .

وقد عبر أحد المفكرين الافريقيين عن ذلك « من غير المعقول أن تتوقع من الافريقى المتيقظ أن يتصرف كما لو كان ما زال نائما » .

لقد وجد ملايين الافريقيين النائمين أنفسهم فجأة يسيرون فى طريق الحرية ولن يعوقهم شىء ما داموا هم أنفسهم قد صمموا على الاستمرار فى السير .

وأذكر أنى تحدثت مع صديقى « ليوبولدا تاكاويرا » وهو الآن عضو تنفيذى فى جمعية مدار الجدى بافريقية التى — نظر الأخذها بوجهة نظر تعدد الأجناس — تعتبر احدى منارات الأمل المعدودة فى افريقية المتعددة الأجناس . وقد صعق « تاكاويرا حين اكتشف أن بعض أصدقائه البيض يتهمونه بنكران الجميل . وقد وجه اليه هذا الاتهام بعد أن دافع بقوة عن قضية حرية افريقية واستقلالها . وتجرى التهمة هكذا « اننا ندعوه الى منازلنا ونشرب الشاى معه فاذا به يستدير ليتحدث عن الاستقلال الافريقى فياله من ماكر جحود ! » .

وهذه الفكرة الأوربية متفشية . فكم من مرة سمع فيها الكاتب تذمر المبشرين « لقد علمناه القراءة والكتابة فاذا به يكتب لنا خطابات

الاعتراض » . كما لو كان المفروض فيمن يتعلمون على أيديهم ألا يشكوا وكثيرا ما سمعت الأوربيين يشكون : « قبل مجيئنا كان هؤلاء الوطنيين متوحشين عرايا أو نصف عرايا . والآن يطالبون بالحرية . هؤلاء القساة ناكروا الجميل » كما لو كان الملبس ثمن شراء حرية الشعوب ومن الواضح أن هذه الأفكار لا تساعد البتة فى حل المشــكلات العديدة التي تواجه افريقية اليوم فهؤلاء الذين يخدمون افريقية ليضمنوا خضوع الشعوب الافريقية لا يساعدون بذلك ملايين الافريقيين المتحررين الذين يريدون أن يكونوا على سجيتهم . والذين يطالبون بحريتهم واستقلالهم فليست الخدمات ذات النوايا الاستعمارية هى الحل الصحيح للمشكلات الافريقية الناشئة عن تعدد الأجناس .

افريقية هى التحدى للديمقراطية الغربيــة :

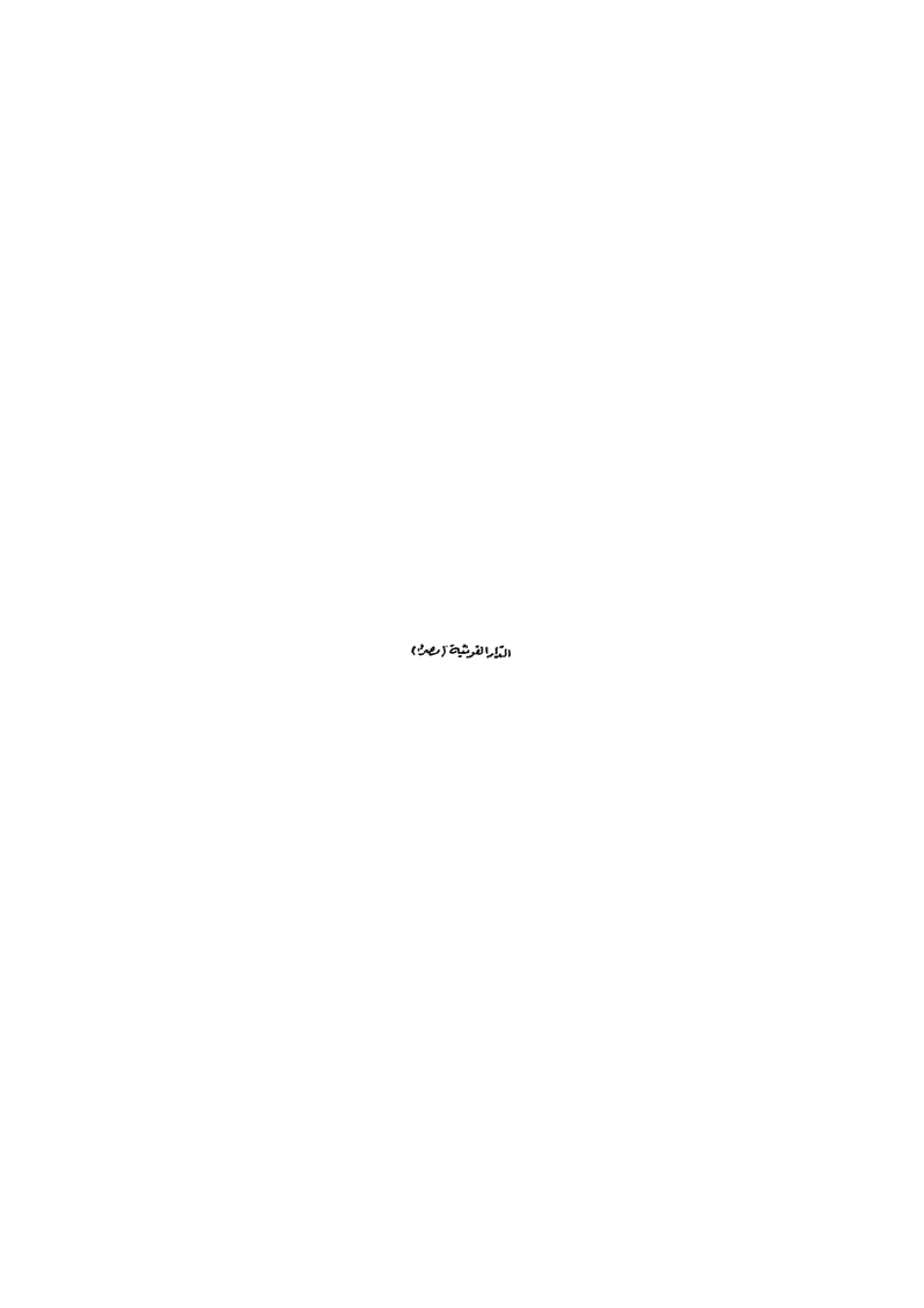
اذا أنكرت الديمقراطية الغربية على افريقيا ، فمن الطبيعى ومن حقها أن تصوغ لنفسها تحت ضغط الحاجة مثلا سياسة أخرى تناسبها . ولا يريد الغربيون أن تصبح افريقية شيوعية . وهم فى نفس الوقت لا يريدونها أن تصبح ديمقراطية لأن ذلك سيضعف سيادة البيض . فالديمقراطية الغربية فى افريقية لا تحمل فى باطنها الا الدكتاتورية . ومن العقم وسوء السياسة والعته أن ننتظر من الذين أمسكت عنهم الديمقراطية أن يدافعوا عن الديمقراطية الغربية اذا انتابتها أزمة . فالشعوب تدافع عن الأشــياء التى تتمتع بها لا الأشياء التى تقيد من حريتها . واذا اضطر الافريقى للحياة طول عمره فى ظل نظام أوربى دكتاتورى ثم ظهر فى الأفق دكتاتور أقوى فمن المرجح أنه سينضم للدكتاتور المنتصر وهذا بالتالى يضعف من الديمقراطية الغربية . وفى حالة ظهور دكتاتور جديد لن يجد الافريقى

ما يكسبه أو يخسره ولكنه سيسر لمجرد رؤية هزيمة الدكتاتور القديم على يد دكتاتور جديد . ولكن امنح الافريقى حريته واستقلاله فستجده يحارب الدكتاتور الجديد بكل قواه لأنه يهدد شيئا ما عزيزا عليه . ولماذا ينتظر من الافريقى أن يخلص للديمقراطية الغربية اذا كان لا يتمتع بالديمقراطية التى كان يتمتع بها قبل مجىء الرجل الأبيض الى افريقية ؟ والذى يدعوه الى أن يموت فى سبيل أن تحتفظ أوربا الغربية والولايات المتحدة بالديمقراطية التى لا يتمتع بها هو ان ملايين الافريقيين الواعين يقولون « امنحونا الديمقراطية التى نعرفها والتى تعرفونها أنتم وستجدوننا سندا حقيقيا لكم ، لا تعطونا ديمقراطية مزيفة » .

أما ما يقال عن أن الافريقيين لا يستطيعون حكم أنفسهم فهو قول مرفوض فالافريقيون يستطيعون حكم أنفسهم كأى شعب آخر فى العالم . انهم ليسوا بشرا كاملين ولهم عيوبهم ككل الأمم الأخرى . وكثيرا ما تقول الدول الغربية : « انه لخطر جسيم أن نمنح الافريقيين استقلالهم التام الا اذا أظهروا لنا أنهم سيحسنون حكم أنفسهم وينسون أنه لا توجد دولة غربية واحدة ذات تاريخ نظيف فقد شهد العالم تحت قيادة الغرب حربين أوربيتين مدمرتين بلغ مجموع ضحاياهما ٤٢٫٠٠٠٫٠٠٠ انسان . ان القيادة الأوربية وحدها تسير فى تدمير الحياة البشرية على هذا النطاق الواسع . ومن ثم فان حرمان الافريقيين من حق حكم أنفسهم بحجة أنهم لا يستطيعون أن يحسنوا هذا الحكم حجة باطلة ، لأن الأوربيين أنفسهم لا يستطيعون حكم أنفسهم على نحو صحيح . فالقوى الغربية وروسيا هى التى تهدد الجنس البشرى بالفناء . ومن المؤسف أن الديموقراطية الغربية تفعل فى افريقية ما تفعله روسيا فى شرق أوربا من حكم الشعوب قسرا .

وأذكر المناقشة التى جرت بين السيد توماس نجارا وأحد المستوطنين البريطانيين اذ قال البريطانى بلهجة التأكيد « اذا استطاع قومك يا سيد نجارا أن يثبتوا حسن حكم أنفسهم فاننا سنمنحهم استقلالهم » . واستشاط السيد نجارا غضبا وقال : لماذا يجب على قومه أن يثبتوا لكم بالضرورة أنهم يستطيعون حكم أنفسهم بطريقة مرضية ؟ من أنتم حتى نضطر أن نثبت لكم أننا نستطيع حكم أنفسنا ؟ من الذى أعطاكم الحق فى أن يثبت لكم ٢٠٠ مليون شخص أنهم سيحسنون حكم أنفسهم ؟ اننا لسنا مضطرين لاثبات أى شىء لكم فليس ذلك من شأنكم » .

ان مشكلة الديمقراطية فى افريقية هى أن تنتشر سريعا أو يحل شىء آخر محلها . وتناشد افريقية الدول الديمقراطية الغربية أن تنشر الديمقراطية فيها . ولكن الدول الغربية ترفض ذلك . وليست القومية الافريقية الا تعبيرا دقيقا عن الروح الانسانية فى بحثها عن الحرية والاستقلال . ومن المؤسف ألا تسارع الدول الديمقراطية الغربية فى منح الحرية والاستقلال لافريقية . ان تحدى افريقيا للغرب هو : « اعطونا استقلالنا . ساعدونا فى كفاحنا من أجل الاستقلال . ان استقلالنا هو استقلالكم .. اننا نحارب من أجل الحرية الانسانية .. اننا نريد أن نكون شعوبا حرة . انكم لا تريدون أن تسيطر عليكم روسيا . ولكنكم تريدون أن تسيطروا أنتم علينا . ولن تستطيعوا التمتع بكلا الأمرين معا ، فاستقلالنا سيضمن استقلال الانسانية . ان الديمقراطيات الغربية ليست مخلصة لأنها ترفض منحنا الديمقراطية .



الدار القرشية (مصر)